محمد أسليم

حديث الجثة



نصوص سردية

محمد أسليم

حديث الجثة

نصوص سردية

تنويه:

يشتمل الإصدار الرقمي الحالي على نصين إضافيين

لم تتضمنهما النسخة الورقية، هما:

- عتبة المحو

- لغة الأعضاء

الكتاب: **حديث الجثة**

المؤلف: محمد أسليم

لوحة الغلاف: الفنان المغربي محمد سعود

رقم الإيداع القانوني: 15 / 1996

الناشر: مجلة علامات – مكناس (المغرب)

ساعة الاحتضار

الساعةُ الآن تشيرُ إلى الثامنة صباحاً وأنا لم يبْق لي في الحياة إلا بضْع ساعات: سأموت على السَّاعة السَّادسة مساءً. تعطلتِ الحركة في المنزل فلم يذهب الأطفال إلى المدرسَة، ولم تتوجه زوجتي إلى العَمل. نوديَ على الأقارب، فقطعوا مسافاتٍ بعيدةً. لا، لم تتعطل الحرَكة في البيتِ بقدر ما وقعتْ أسيرةً بداخله. لقد احتكرَ المنزلُ الأجسادَ والحركاتِ والأصوَات فبدَا وكأنَّ العالم قد تقلَّصَ فِيه. بَدا كمخاضٍ هائلٍ سيُفَجِّرُ ولادة عَنيفة، كانقباضةٍ أو انكماشَةٍ سيعقبها لفْظٌ خاطفٌ ثم ارتخاءةٌ تشبه ارتخاءَ المرء فوْرَ انتهائه من الْجِمَاع.

أنا مُمَدَّدٌ فوق السرير يَعصُرُني الألَمُ، وحَولي تحلَّقَتْ جماعةٌ يُوَقِّعُ ألمي المتعاقبُ حركاتِها وأقوالها: فحينما يجتاحني الوَجَع وأستجيبُ له بإطلاق أنَّاتٍ مرعبةٍ يُصْبِحُ مَرْكَزُ الاهتِمَام هُو أنَا؛ بعضهم يمسِكُ برأسِي وبعضُهُم يضع يده على صَدري أو رِجْلي. بعضهم يُقَطِّرُ ماءَ بصَل في فمِي وأنفي وبعضهُم يعصب رأسي... يشتد البُكاء وتكثر الأسْئِلَةُ: «مابك؟ عافاك اللَّهُ! بَعُدَ الموتُ عنك مقدار ما بعُدَتِ السماءُ عن الأرض! هل ستموت؟ ماذا تَرى؟ ما اسمك؟...» حتى إذا انسلَّ مني

الوجع انفض القوم من حَولي ولم يمكثْ بجانبي إلا واحدٌ أو اثنان. تتناهى إلى مَسامِعِي أصواتُ غسْل أطباقٍ وأوَانِي، وإعدادُ موائدَ وإخراجُ أفرشةٍ، تتخللها أصواتٌ أخرى آمرة ناهية وكلمات لم تتردد طِوال مُدة مرضي كالكفنِ، والبخور، والفقيهِ، والقبرِ. ألا ما أشبهَ المقام بمقام الإعدَاد لحفلٍ أو عُرْسٍ!

تلسعني قَدَمَاي من شدة البرد، فينتابني إحسَاسُ أَنِّي أنتعلُ حذاءين من جليدٍ. أدرك أنني وحيد ومغبون. وحيد لأنني واقع في قبضة الألم، ومغبون لأني موضوع فرجَةٍ من قِبَل حتى من كنتُ إلى هذه اللحظة أعتقد أنهمْ أقرب الناس إلي. يتعمق هذا الإحسَاس حينما - وأنا مغمض عيني أسترجع ما تبقى لي من نَفَس بعد انْصِرَامِ الوجع السابق استراحةً منه واستعدادا للوجَع اللاحِق - أسمع من هم حولي يتبادلون كلاما لا علاقة له إطلاقا بهذه الطَّريق التي أنا راكبها. أتسَاءل: «ما علاقتي بكل هذا؟ أيْن أنا الآن؟». تنكَشِفُ هُوة شاسعةٌ بيني وبينهم لأدرك من عمق وحدتي أنني قد بدأت في التشيُّؤ ودخَلتُ صيرورة التحوُّل إلى آخرَ: آخَرَ عن نفسي، وآخَرَ عن الآخَرِينَ. إنَّ كل هَذه الترتيبات، في العُمْق، ليست تخفي في طيَّاتها إلا مَا به يدفعون عن أنفسهمُ الرُّعْبَ الذي أنا الآن واقفٌ على عتبته. إِنَّنِي أُقَدَّمُ قربانا للموت! فكلُّ شيء يتمُّ كأن حريقا مهولا قد شبَّ في منزل، وأمام حتمية التهامه لبعض ممن يُوجدون في ذلك البَيت فقدْ أخَذ كُلُّ امرئ يبحثُ عن تقديمِ الأقربِ إلى يديه (أُمِّهِ، أبيه، أخيه، ابنه، وما إلى ذلك) هِبَةً

للنار كي يفلتَ هو بجلده. إن ما يقوم به كُلُّ واحدٍ ممَّن يحيطون بي، عَبْرَ هذه الإجراءات الطقوسِيَّة، إنما هُو الاحتفال بكَونه ليس هو الذي سَيموتُ وإنما آخر [هو أنا]. أنا الآن ذريعةٌ يُتَقَرَّبُ بها إلى المَوْتِ.

أشعر بحقدٍ مُمْتَعِض وحَسَدٍ كبيرٍ تجاه كلِّ إنسان يوجدُ من حَولي لأنني سأُمْحَى بعد قليل فيما سيتَخَلَّفُ هو من ورائي. تَسْتحوذ عليَّ رغبةٌ عارمةٌ في أن أقومَ وأُحِيلَ كل ما في البيت إلى رميمٍ، لكنَّ زحفَ الجليدِ نحو رأسي يحولُ بيني وبينَ القدرة على ذلك.

أنا الآن لا أَنْتَعِلُ حِذاءً من ثلج، بلْ أنتعلُ جَزْمَةً جليدِيَّةً. لقدْ مَات مِنّي ما بين الْقَدَمِ والرُّكْبَةِ. تضاعف حِقْدي لما انْكَشَفَ أمامي ما اكتشفتُهُ نِفاقا في من حولي كلما أخذوا في البكاء. أتساءل: « أحزنا على فقداني أم توسُّلا إلى الموت كي يعيدني إليهم؟»، ثم: «أمام صلف الموت، وعماه، وصَمَمِه، أليسَ الأجدر - بدلا من التوسل إليه - بنا هو أن ننقض عليه؟». أتخيل غضبا مُرعبا يستحوذ عليهم جميعا فَيُمْسِكُ كلُّ واحد منهم بما يقع في يده فيهوي به علَى الآخر أو يهشم به رأسَه. تمسك زوجتي رضيعها من إحدى رجليه، تُطَوِّحُ به في الهواء، ثم تقذف به في اتجاه رأس أخيه الأكبرِ. يسْقُطُ الرَّضِيع، يتخبَّطُ كديك ذبيح قبيل أن تهمُدَ جثته. يرسل الطفل الأكبر صراخا مرعبا، يمسكُهُ أبي ويقذف به ليلقى المصير نفسه فيما تتشابك أجساد الآخرينَ وهم يصرخون ويتقاذفون الصُّحُون والموائد، وينفذون السَّكَاكِين في بعضِهِم

بعض إلى أن يتحوَّلَ المنزِل إلى سيلٌ من الدَّم الفوار... لا. إنهُم لا يفعلون ذلك. وإذن فبكاؤهم ليسَ عليَّ. إنهمْ يبكون على أنفسِهم، على موتهم المؤجَّل الذي لستُ الآن إلا الدليل القاطع على حقيقةِ وجوده، لستُ الآن إلا تذكيرا بِه. إنهُمْ يخفون فرْحَة خَلاصِهم الحالي وَرَاء حزنهم على فُقْدَانِي.

تَهُبُّ علي انتشاءةٌ حكيمةٌ. يتحوَّلُ الغضَب والرُّعْبُ المستحوذان عليَّ إلى رأفة وشفقة. تحضرني صور من عاينت احتضارهِم منْ قبل، أُدرِكُ أنهم قد مرُّوا هم الآخرون من هذا الممر نفسِه الَّذي أجتازه الآن. مَا من أحدٍ منهم إلا وحقدَ عليَّ حقدا مرعبا عندما كنتُ أقدمه قرْبانا للمَوْتِ، عندَما كنتُ أبتهجُ لكوني لستُ أنا الذي كنتُ سأموتُ وإنما آخر، عندَما كنتُ أتخذُ منه ذريعة للتقرُّب إلى الموت. «لماذا لم أقتل نفْسِي حينئذ؟»، أتساءَلُ بلا انقطاعٍ، إلا أن نفحات الموت تخرسني بجواب صلبٍ كالفولاذ:

«لَوْ كُنْتَ وَضَعْتَ حَدّاً لِحَيَاتِكَ آنَذَاكَ لَكُنْتَ الآنَ. إنَّك بعَدَمِ اغْتِيَالِكَ نَفْسَكَ حِينَئِذٍ لَمْ تَفْعَلْ سِوَى تَأْجيل مَا كُنْتَ سَتَجْتَازُهُ - لَوْ لقيتَ حَتْفَكَ - إلَى هَذِهِ اللَّحْظَةِ!»

أومِيءُ برأسي ويَدِي بِأَنَّ الأمر كذلك.ألتفَتُّ إلى الموتَى الذين حضرتني صُوَرُهُمْ قائلا: «إنَّ الأمْرَ فِعْلاً كَذَلِكَ»، ثم استدرتُ إلى الـ«أحياء» المحيطين بي فتَبَدَّوْا لي موتى آخرين لأنني مُوقِنٌ بأن كل ما

يفعلونه، بتمسُّكِهم بالحياة، إنما هو تأجيل هذه اللحظة كما أجَّلتُها أنا من قبل، علما بأنهم سَيَصِلُونَ حتما إليها. فتحتُ فمِي وقلتُ لهم: «مَآلُكُمُ الْمَجِيءُ إِلَى هُنَا، مَآلُكُمُ الآنَ» سألني أحدهم:

- مع من تتكلم؟

أجبتُ:

- معكُمْ.

قيلَ:

- إنَّهُ الآنَ يُهَلْوسُ.

أريد أن أبلِّغَهم ما أنا بصدد التفكير فيه، لا يُطَاوِعُنِي لسَاني. أحاوِلُ التقلُّبَ علَى جنبي الأيسَرِ، لا أقوى علَى الحرَكَة. انتصبتْ حواجزُ العجز والصَّمتِ بيني وبين جسدي، ثم بيني وبين محيطي دُونَ أن تُفْقِدَني الوعْيَ. أتابع بسمعي وبصري كل ما يجري حولي والحركةُ مسْجُونةٌ بداخلي. أُحسُّ بما يحسُّ به المرء حينما يَنْهَارُ منزله إثر زلزالٍ مُروعٍ فلا يفطِنُ لنفسه إلا وهُوَ محبوسٌ تحت ركام الأنقاض كلما أراد أن يتحرك اصطدم بجدارٍ. أنا الآن أتألَّقُ حيويةً ونشاطاً لكنني واقف على حافة جسَدي، واقعٌ في شِرك جسَدي الجامد. كأنني ألِجُ صَيْرُورَةَ التشيؤ. يرتسمُ فرقٌ آخر بيني وبين الآخرين: هم مَوْتَى داخل أجسَادِهِم الحية، وأنا حيٌّ داخل جسدي الميّتِ. بدأت الحياةُ تتقلَّص بداخلي

فشرعْتُ في الإحساس بشساعة جسمي المهولة: الكَبد قارَّة، والقلبُ بحارٌ، والأمعاءُ أفلاكٌ، وأنا ذرَّةٌ يُرهقني التنقل بينها ويستنفدُ مني أزمنةً طويلةً. أفكِّرُ في ما يستغرقه تنقُّلُ الإنسان داخل النِّظَام الشَّمْسِيِّ فأتساءلُ عما إذا كَانَ البشر ذرَّاتٍ داخل جِسْمٍ يحتضرُ، وعمَّا إذا كانَ هذا الأخير بأرضه وسمائه وشمسِه ونجومِه لا يعدُو مجرَّد ذرة داخل جسدٍ أكبرَ، مَا نحنُ بداخِلِهِ، بالنسبة إليه، إلا كمَا هي، بالنسبة إلينا، تلك القارَّات والمحيطَات والكائنات التي تسْكن الذَّرَّةَ الواحِدةَ، لا تَرانا ولا نرَاها. أكوانٌ داخل أكوان. أزمنةٌ داخل أزمنةٍ. كائناتٌ داخل كائناتٍ. ذراتٌ داخل ذرَّاتٍ... ما الواحدُ منها إلا هيأة نسبية في مُتَتَالِيَةٍ مُتدرِّجةٍ في الكِبَر إلى ما لانهاية وفي الصغر إلى ما لانهاية. كل هيأة أو مَوْجُود هو كَوْنٌ بالقياس إلى ما يصغره، لكنه أيضا ذرة بالقياس إلى ما يكبره. أنا كونٌ، والكأسُ كونٌ، والمنفضة كونٌ، والنَّمْلَةُ كونٌ، وما النظام الشمسي من موقع أكبر سِوى كَلَّةٍ أَوْ ذَرَّةٍ تتدحرج في اتِّجَاهِ كَلّةٍ أُخْرَى. فَسُبْحَانِي أَيْنَ أَنَا؟ ثُمَّ سُبْحَانِي مَنْ أَنَا؟

الساعةُ تشير الآن إلى الرابعة مساءً. بيني وبين الموت مسافة ساعتين. أترقبه كما يترقب المرء مفاجأةً أو اكتشافا حاسِمين وأنا أتساءل: «إِلَى أَيْنَ أَنَا ذَاهِبٌ؟ كَيْفَ سَيَنْقَضُّ عَلَيَّ الْمَوْتُ؟ بمَ سَأُحِسُّ عِنْدَمَا سَأَكُونُ بِصَدَدِ ٱلْمَحْو؟ إِلَى مَاذَا سَأَؤُولُ بَعْدَ ٱنْسِحَابي مِنَ ٱلْحَيَاةِ؟...» تصطَدِمُ الأسئلة بجدران عَقْلِي فَمَا أجِدُ لها جَوَابا سوى ترديد كلماتٍ:

«غيرُ مُمْكِنٍ»، «لِمَاذَا؟»، «هَذَا مُنْعَدِمُ ٱلْمَعْنَى!»، «مُسْتَحِيلُ التَّصْدِيقِ!».

وفجأةً انغلقتْ أذناي لتنقطع صلتي بالمحيط الخَارِجِيّ وأغرق في ضجيج جَسَدي، كأنني ولجتُ حمَّاماً مفرط الحرارة تكدَّسَتْ داخله أجسادٌ غفيرة وامتلأت جنباته بصخب الأصْوَاتِ وتزحلقات الأجساد وارتِطَام السُّطولِ. تؤلمني بشرتي. كأنَّ كميات كُبرى من ماء مغلى فَوَّارٍ قد انهمرتْ عليَّ. تمتلئ حنجرتي ببصقٍ ومخاطٍ لا أستطيعُ ابتلاعَه ولا قذفه إلى الخارج. أدخلُ في مَرْحَلَةِ اللامبالاة المطلقة: أتألم، لكنني لا أرْجُو أن يُرْفَعَ عَنِّي هذا الألم، وذلك ليسَ لأنِّي أتلذذ به أو لِكَوْنِي قد استأنسْتُ به، ولَكِن فقط لأنَّ طعمَ كُلٍّ من الألم واللذة لم يَعُدْ له أي معنى عِنْدِي. تتوالى وقائعُ حياتي أمَامَ عَيني بسرعةٍ مُفرطةٍ دون أن يُحْذَفَ منها أي مشهد: ولادةٌ، نشأةٌ، بلوغٌ، كبرٌ، احتضارٌ، الآنَ. سَيل الدُّموع، أفواج القهقهاتِ، لحظاتُ العربدةِ، غاباتُ السِّيقانِ والأفخاذِ التي هوتْ تحتي وانفتحتْ لتعصرني مقدمةً إليَّ سِرَّ أسرارها قبل أن تنصرف إلى حيث لستُ أدري...

كل ذلك يمضي في وقت يُعَرِّي بقِصَرِهِ عَرَاءَ ذلك الوهم الذي كنتُ أسميه حياةً. إن ما يقضيه المرء وقت احتضاره لَيَفُوقُ أضعافاً مُضَاعَفَةً مجموع وقائع حياته بحيث يسْتَعْرِضُ شَرِيطَ وجوده مئات المرَّات ويُنْفِقُهُ دون أن يُنْفِقَ ربع لحظة مِنْ اللحظات التي تفصله عنِ

الموت. ألا مَا أقسَى الغبن الذي يلُفُّ الإنسان طِوَالَ حياته ويرافقه أثناء مماتِه! تَرْشَحُ عيناي بِفَيْض من الدُّمُوعِ فيتناهَى إلى مَسَامعي صَوْتٌ لا أَتَبَيَّنُ أَمِنْ داخلي هُوَ آتٍ أَمْ من خارجي:

- لِمَاذَا تَبْكِي؟

- أنا الآنَ أَحْتَضِرُ.

- صَلِّ!

- أَنَا ٱلْمِحْرَابُ وَٱلصَّوْمَعَةُ!

- كَأَنَّ بَيْنَكَ وَبيْنَنَا حِجَابٌ...

- لاَ تَرَانِي وَأَرَاكَ.

- لَيْت ٱللَّيَالِي...

قاطعتُ الصوت قائلا:

- الأَرْوَاحُ طُيُورٌ وَأَنَا قَابضُهَا!

قيل:

- إنَّهُ الآنَ يُهَلْوسُ!

وفجأَةً أحْسَسْتُ كأن نفسي تَنْسَلُّ من نفْسِي. بدأ ذلك بانتقال الأَوْجُه والهيئات إلى وضع التَّشَابُه المطلق أمَامِي؛ لم أعُدْ أقوى علَى التمييز بين من يحيطون بي. فهم يَبْدُونَ لي نُسَخاً من بعضهم؛ كأني

أمام فردٍ واحدٍ أو شخص داخلَ غُرْفَةٍ من مَرَايَا. ذابت القَسَمَاتُ الْمُمَيِّزَةُ بين هذا وذاك فلم أعُدْ أرى حيثما ولَّيْتُ وجهي سِوى قَاماتٍ منصوبةٍ على أعمدةٍ متحركةٍ تَدَلَّى مِن جَانِبَيْ كُلِّ واحدَةٍ منها عمُودَان آخران قصيران واعتلتها دائرةٌ كَكُرَةٍ انتشر في جزئها الأكبر سواد وخَرَّمَتْ جُزْأَهَا الآخرَ ثُقُوبٌ. مثلي الآن مثل المرء يوضع أمام قطيعِ شياهٍ متشابهة تماما فيعجز عن تمييز الكبش الوَاحِدِ عن الآخرينَ حتى إذا قيل له: «وَمَعَ ذَلِكَ فَمَا مِنْ نَعْجَةٍ مِنْ هَذِهِ النِّعَاج إلاَّ وَهِيَ قَادِرَةٌ عَلَى تَبَيُّن ٱبْنِهَا وَسَطَ هَذَا ٱلْقَطِيعِ» أخذه العجبُ والدَّهشَةُ. أُجْبرُ عيني على التركيز، لكن ما تأتياني به أسوأ: تبدو الرؤوس كقباب أضرحة مثلثة تدلت من جانبي كل قبة منها أعراش هائلة. أما الأعين فتبدو ليالي عميقةً مُوحِشَةً... ثم انتقلتُ إلى الإحسَاس بحركات غريبة تتم بداخلي؛ أشعر بِخَشْخَشَاتٍ وفرقعاتٍ قوية يعقب كل واحدة منها سُكُونٌ مطبقٌ. كأنَّ حبالا متينة ضخمة تتقطع بداخلي تحت وطأةِ ثِقْلِ مفرط. كأنني أُفْتقُ وأُرْتقُ بمَسَامَّ هَائِلَةٍ. كأن نسيج جسدي يُفْتَحُ...

أنا الآنَ في طَوْرِ الدخول إلى الخوَاءِ. تنفتح أذناي فلا أسمع سِوَى صوتٍ مُطْبِقٍ ينشر في أرْجَائي راحَة وخفة كبيرتين. يتمدَّدُ جَسَدِي مارقا من سِجْنِ هيأته. تتخلله الأشْجَار، والجِبَالُ، والأنْهَار... أشرَع في التَّأَلُّق. يزدحِمُ رأسي بالأفكار، لكن كُلَّمَا أردت اقتناص واحدةٍ منها أفلتت مني كَمَا تفلت قطرَاتُ الماء بين الأصَابِعِ. الفكْرُ أمامي نافورةٌ تتطاير منها الأفكَارِ وأنا أمامها مَشْدُوهٌ مذهول كحَشَّاش أو مُومِيَاء محنطة. أسمع

بجانِبِ رأسِي صوتاً كآذان أو قراءة قُرْآن، يدب في أرْجَاءِ جَسَدِي خشوع مرحٌ وتستحوذُ عليَّ رعشة كرعشة الإنزال. تتراءى لي أجسادُ نساءٍ عارياتٍ تتراقصنَ في فضاء الغرفة، نساء ذواتُ نهودٍ مدلاَّةٍ كالعناقيد وباقاتُ شعر تتطاير في الهوَاء كسَعَفِ النخيل. يذهلني جمالهنَّ، إلا أنني كلَّما حاولتُ أسْرَ إحداهن بالبَصَر طَارَتْ كصورة من ورق. تأخذني حمَّى جحيمية، يغرق فِرَاشِي في العَرَقِ. ينقبض جسْمِي وكأنه سيقذف شيئا عَظِيماً. أريد أن أصرُخ أو أتكلَّم. لا أقوى على تحريكِ لسَاني. أنا الآن كَمَن سَكِرَ إلى أن تهاوى فما عادَ يربطه بهذا الوُجُود سِوَى الترنح الصامت...

وفجأة أحسسْتُ بنفسي قد ثقُلَتْ ثقلا مهولا أعقبَتْهُ وثبةٌ خاطفةٌ خفيفةٌ خلَّفتْ وراءها أصواتا وَسِعَتْ أُذُناي بداياتِها جميعاً: نَهْنَهَةُ بُكَاء، تِلاَوَةُ قُرْآن، خَبْطُ أَيَادٍ، هَدِيرُ أَمْوَاج، قَرْعُ طُبُول، حَنِينُ ريَاحٍ، نِدَاءُ بدَايَاتٍ، ضَبَابُ سَدِيمٍ...

عودة ميِّت

كاد الموتُ أن يشبه دخولَ الحمام لولا أن ولوجَ الحمَّام يعقبه خروج فيما الموت هو الخروج نفسه». هيا انزعْ حذاءَك يا صاحِ وتهيأْ لدخول موتك كمَا تدخلُ حَمَّامَكَ...»

برأسي صداعٌ ودوارٌ، وأنا ممدود وسط هالةٍ من البخار، والعرقُ ينسَاب مني انسياب السَّيل المتوحش... وهذه الكُتَل البشرية المحيطة بسَريري تبدُو لي سوى دمىً تحكِي الخيانة من عالم بعيدٍ. أما أصواتُ الأطفال اللاعِبِيَن في الزقاق فتتهاوى على مسامعي، من النافذة المحاذية لسريري، كنباح جِرَاءٍ مسعورةٍ... ومن شاء الوقوف على ذلك بنفسه فلْيَتَنَاوَلْ علبة أقراصٍ من الأسبرين وهُو في أقصى درجات الْحُمَّى ثُمَّ لِيُجْهِدْ أَسْنَانَهُ في تكسير عُنُقِ زجاجةٍ سميكةٍ.

أنا الآن جسدٌ مُفْلِس وما هذا العويلُ الذي يحيط بي إلا إعلانٌ عن إفلاس آخر.. عما قريب سأصير جثة هامدة لن يُتَخَلَّص من رُعبِها إلا بحملها كَكِيسِ إسمنت وإحكام مواراتها تحت التُّرَاب... الدَّفْنُ هو أبلد تعبيرٍ عن كوميديا الوجُودُ البشري. يا لهول الغبن الَّذِي يُصيب

الأحياءَ! فَهُم حينمَا يموت أحدُهم يُسقِطون عليه أفكارهم وأحاسِيسهم من مساحَة تواجُدِهمْ، فيعاملونه كمَا لو كان مازال حيا: يَبْكُونَهُ، ويُلْبِسُونه، ويُعَطِّرُونَهُ... أرى الآن مُغَسِّلِي يمسِكُنِي ويَلُمُّنِي بين يَدَيْهِ كما يَلُمُّ الخَبَّازُ قطعة العَجِينِ فأنهض وأُوسِعُه ركْلا ولكْما وأنا أُعَنِّفه:

«مَا مَعْنَى مَا تَفْعَلُهُ بِي الآنَ؟ إِنَّنِي ما عُدْتُ إِنْسَاناً. أَنَا ٱلآنَ مَمْحُوٌّ دَاخِلَ حِيَادٍ مُطْلَقٍ، وَسَأَمْكُثُ فِيهِ حَتَّى وَإِنْ هَجَرْتُمْ جُثَّتِي أَوْ أَحْرَقْتُمُوهَا أَوِ ٱلْتَهَمْتُمُوهَا.»

أُرَكِّزُ بَصَرِي على الساعة الحائطيةِ وعقاربُها مُثَبَّتَةٌ في الخامسة مساءً وأنا مُلْقًى فوق السريرِ وشريطُ وقائع حياتي يمرُّ أمامي بسُرْعةٍ مذهلةٍ، فلا أقوى على المتابعة... يَعْصرُنِي الألَمُ والدُّوَارُ يُزَوْبِعُنِي...

أخَذَ جسَدي في التمطُّطِ من حَوْلي كعجينٍ رَخوٍ أو سائل لزجٍ فلم أعُدْ أتبيَّنُ حُدُودِي... تغيَّرَتْ نبرة الأصواتِ المحيطةِ بي فصار إحسَاسِي كمَن أنهكَهُ الجُوعُ والعَيَاءُ، وأحرَقَهُ القيظُ في غمرة سفرٍ لا بِداية له ولا نِهاية، إلى أن تهاوى بين الإغمَاءِ واليقَظَةِ. أسمعُ أصْوَات آلات لم يَسْبِق لي أن سمعتُ مثلها قط، وصفَّارَات إنذار هائلة، وخوَار ثيران ذات كبر مرعبٍ. وعندما يضع أحَدٌ ممن حَولي يده على جسمي فإنِّي لا أتبيَّنُ مكَان وضعها ولا المسَاحة التي تشغلها. كلُّ ما أحسُّ به هو ألمٌ فرحانٌ يجتاح جسدي ويتمطَّطُ من حولي إلى ما لانهاية...

بَدَأْتُ أستأنسُ بوضعي الجسَدي الجدِيدِ، فأصبح وُقوفي وقُعُودِي وتحرُّكِي، من قبل، ليْسَ غريبا عني فَحَسْب، بَلْ ومستحيل التَّصَوُّر؛ كأنه لم يكن سِوى خيانةٍ عظمى... يُزْعِجُنِي صوتُ الباكين المحيطينَ بِي الذي يصِلُ إلى مسامعي كصدىً تتقاذفه جبالٌ بعيدة لأنَّه يُكَسِّر أصواتَ الطيُور، وأسْرَابَ الرَّيَاحِين، والفضاءات المترامية من حولي، وروائح الملائكَة التي تغَازِلنِي... أخذ السَّرير يسْبَحُ بي في المجالات الشاسعة. أريد أن أتكلم. لا أَقْوَى على الكلاَمِ... أُطلِقُ صرخة عُظْمَى. أتوهم أنها هزَّت الجدْرَان، إلا أنها في الحقيقة لم تتردَّد إلا في أعماق وحْدَتِي:

«أَنَا وَحِيدٌ! أَنَا وَحِيدٌ»!

وفجأة أخذت هذه الوحْدَة تنكَسِرُ داخل سيل موحشٍ من رعْشَاتِ الإنزال. تَنْعَصِرُ عروقي، وينتشر دَبيبٌ في عِظامي كافَّة أُحِسُّ معه بأن مخي قد تحول إلى سائل يغلي. تجتاحني زَغْدَاتٌ تسلمني إلى عياء تام. أفتح عيني.. عَقَارِب الساعة مثبتة في الخامسة والرُّبع مساءً، وأنا ملقى علَى السَّرِيرِ، وشريطُ حياتي يمرُّ أمامي بسُرْعةٍ مهولةٍ.

يَعْصِرُنِي ٱلألَمُ والدُّوَارُ يُزَوْبِعُنِي...

أُثَبِّتُ أذنيَّ في ما يحيط بي. عادتْ أصواتُ الأطفال اللاعبين في الزُّقاق تَتَهَاوَى على سمعي كنباح جراءٍ مسْعُورةٍ. استسلمتُ لنومٍ عميقٍ ملفوفا وسط خَيْبَةٍ سوداءَ، ومن بعيد كان نداءُ الموتِ يسْتَدْرِجُنِي:

«هيا انزعْ حِذاءَك يَا صَاحِ وتَهَيَّأْ لِدُخولِ موْتِكَ كَمَا تدْخلُ حَمَّامَك»...

*

*　*

خَلَعتُ حذائي وملابسي دافعا عَرَاءَ الكَائنِ بداخلي إلى تخومِه القُصْوَى التي لم تكن جثتي إلى ذلِكَ الحين سِوَى انفلاتٍ مَارِقٍ منها؛ توضَّأْتُ بوقودٍ وصلَّيت على نفسي بابتهالاتِ وتراتيل التِّيبِتِ الْجَنَائِزِيَّةِ التي يُردِّدُها الرَّاهِبُ وهو يفصل رأسَ الميّت عن جثته وينفخُ الهواء في أذنيه وأنفه حَتَّى إذا انتهَى هَشَّمَ الرَّأْسَ بحجرٍ صلبٍ وانصرف يفصلُ لحم الجثة عن عظامها بِمِدْيَة طويلة حادة، ثم ألقى بالجُثَّةِ المحلولةِ إلى أسراب النُّسُور والغِرْبَانِ...، صلَّيتُ على نفسِي ثم سكبتُ الوقودَ على الكتُبِ والفِرَاش وجَسَدِي، وأطلقتُ النارَ من عُقَالِهَا الْمُقَدَّسِ، وجَلَسْتُ أتفرَّسُ فِيَّ مَلِيّاً. أطلقتُ صرخةً مرعبة، ثم انقضضتُ على الموت لأنني ظللتُ إلى تلك اللحظة أومنُ بأنَّه جبانٌ حقيرٌ إذا لم تسبق إلى مُداهَمَتِه بادَرَ هو إلى مُداهمتِك بوجهٍ بَشِعٍ قذرٍ تفوح منه رائحةٌ كريهة.

ثوانٍ قليلةٌ جدّا كانت كافية لانتفاخ جسَدي. أحسَسْتُ بأنَّ جثتي قد تضاعَفَ حجمُها خمس مراتٍ والشحم بداخلي يغلي ويحاولُ عبثاً أن يتسلل من ثقوب جسَدي التي كانت قد انغلقت تماماً... خلال

ذلك كانت النَّار تصدِرُ حنينا موحِشا كرياح البحْر الهوْجَاءِ، وكانت الغرفة قد تحولتْ إلى عُلبةٍ من نار، ولذلِكَ لم يحدث انفجارُ جُثَّتِي سِوى صوتٍ خافتٍ كصوتِ انطفاءِ جمرةِ نَارٍ أو قطعة حديدٍ ساخنةٍ في بقعة ماء. وفيما تكَوَّنَتْ فوق جلدي قشرةٌ خشنةٌ سميكةٌ تمزَّق بطني لعنفِ الانفجار وأخذَتْ الأمعاء وفضلات الأكْلِ والشَّحْم في الغَلَيَان والذوبان، فتحولتْ إلى رائحةٍ كريهةٍ تثير القشعريرة والرغبة في القيء. وفجأة تهَاوى عقلي كمنزلٍ داهمه زلزالٌ عنيفٌ فتَشَتَّتَ الإحساسُ بداخلي وتبعثرت أعضائي. ولم أكن أعرِف من قبْل أن ذلك كانَ سيُحَقِّقُ رغبةً كانت قد خَطَفَتْني منذ أن هبَّتْ عليَّ نسمةُ هذه الجهة الأخْرَى؛ فقدْ كنتُ أرغب في أن تتفكَّكَ جثتي وتنتقلُ من شكلها الحالي إلى شكلٍ قَنَوِيٍّ ينفصل فيه كلُّ عضو عن الآخَرِ ويشتغل بمعزلٍ عنه داخل هيأةٍ مُثَبَّتَة في الحقولِ، والمحيطاتِ، والأفلاكِ، والهواءِ الطلقِ، والكائناتِ البرِّيَّةِ...

ولم أكُنْ بتلك الرغبة إلا أَجْتَثُّ نفسي الزمن الحالي لأستقرَّ في عُمْقِ زمنٍ آتٍ لا ريب فيه سيشهدُ فيه العالَمُ تَكنَجَة تُثَبِّتُ كل شيء في كُلِّ شيء إلى أن يتحوَّلُ الكون برُمَّتِهِ إلى مجرد آلة صغيرة تشتغل من تلقاءِ نفسِهَا، آلةٌ مَا الزمنُ الرَّاهنُ بالمقارنة مَعَهَا إلا عصر حجريٌّ آخَر.

*

*   *

جُمِعَ رمادُ الجثة بعدما عُزِلَ بعنايةٍ متناهيةٍ عن رَمَادِ الكتب والفِرَاش والخشبِ والملابس ثم وُضِعَ في كيسٍ طاهر مُعَطر أنيق أُجْرِيَتْ عليه كافة ترتيبات الطقوس الجنائزية، ووُرِيَ داخل قبر كبير...

أثناء دفنهِ، كان الرَّمَادُ داخِل الكيس مَهْوُوساً برغبة النُّهوض وإشباع الدافنين لكماً ورَكْلاً وهو يُعَنِّفُهُمْ قَائِلاً:

- مَا مَعْنى مَا أَنْتُمْ فَاعِلُونَ بِي الآنَ؟ أَمَا عَلِمْتُمْ أَنَّنِي ٱلْآنَ مَمْحُوٌّ دَاخِلَ حِيَادٍ مُطْلَقٍ، وَأَنَّنِي سَأَظَلُّ عَلَى مَا أَنَا عَلَيْهِ الآنَ حَتَّى وَإِنْ نَثَرْتُمُونِي فِي الْهَوَاءِ أَوْ غَبَّرْتُمْ بِي النَّبَاتَ؟!

كان الرمادُ صائبا. ولما كُنْتُ أعتقد أنه كان صائبا لم أكنْ أنا الآخرُ سوى امرئٍ؟ مغبونٍ : فقد كنتُ أُسْقِطُ عليه أفكاري من ضفَّة وُجُودِي وأعامله مِثْلَ حَيٍّ. أما علمتُ أن الرماد كانَ ما عادَ إنسانا، وأنَّهُ كَانَ قد مُحِيَ داخل حيادٍ مطلقٍ حيث سَيَمْكث مهما تكن المعرفة التي أُشَكِّلُهَا فِي شَأْنِهِ؟!

*

*   *

إن أُحادِيَةَ حركة المَوْتِ التي تُحِيلُ إلى استحالةٍ كلا من رجوع الرَّماد إلى هيأته، والميت إلى قبره، ودخول الأحياء إلى روضة الموتى بضمَانة مُسبقة لعودة أكيدة، هيَ الصورة الْمُثْلَى لجبنِ الموتِ وبشاعته.

فهُو لا يملكُ أدنَى درجةٍ من التفكير، ولا يشتغلُ إلا كآلة عمياءَ. إنه لا يفعلُ دائما سِوَى إدخَال المرء إلى الموتِ أو إخراجه (من الحياة)، لا مجالَ عندَهُ إطلاقا لإدخاله وإخرَاجِه معا، في آن واحدٍ... وكَوْنُهُ كذلك يجعله ذا صلةٍ بالجنون أكثر من أي شَيء آخر، ولذلك فالسَّبيل الوحيد للانتقام منه هو تسْديد لَكمَاتٍ عنيفةٍ لوجهِهِ من الموقع نفسِه الذي يسدِّدُ مِنْهُ الأسْوِياء لكماتهم إلى المجانينِ.

ضعْ بالتناوب قدما في الموتِ وأخرَى في الحياة، ثم امْضِ بسرعة قُصْوَى وانظرْ ماذا يجري...

لما عزمتُ على وضع حدٍّ لحياتي بتناول كميةٍ كُبرى من العقاقير وإحْرَاق جثتي، ولما دَبَّجْتُ قبيل ذلك خِطاباً أوضِّحُ فيه أسْبَاب انتحاري وأبرئ فيه سَاحة كل منْ يُحِيطُون بي من أي تهمةٍ قد تلصق بهم بسَبَبِ موتي، كنتُ غبيا مرتين:

مرَّةً لأنني التمسْتُ الحل لمشاكلي ومُعَانَاتي في عالمٍ يلغي كلَّ مَاضٍ في وضعٍ جديدٍ ليس بمقدرتي معرفة ما هو لكونه يَتَنَافَى مع كلِّ معرفةٍ إن لم يكن هو المعرفَةُ نفسُها لكنَّهَا لا تتحقق إلا بحتف الكائن لأنَّ حتفه هو وُجُودِها وَوُجُودِه هو حتفها. فعندما كنتُ ممدَّداً في الفراش أحتضرُ، وعندَمَا كانتِ النَّارُ تلتهم جثتي كانَ بابُ المعرفة قَدِ انْفَتَحَ أمامي على مِصْرَاعيه، وبعدد خطواتي نحو المَوْت كُنْتُ أزداد علما، إلا أن نقلَ معرفتي إلى الآخَرِين تعذَّر علي لسَبَب بسيطٍ: فقد

كنتُ بصدد الخروج من المدَارِ البَشَرِيّ. أما الآن وقد عُدْتُ، فإنني كلَّمَا استحضرتُ شيئا من تلك المعرفة لم يأتِ إلا بهيأةِ أعشاب بريةٍ، وأمواجٍ هوْجاءَ، وسُحُبٍ سوداءَ، وعواصف مزمجرةٍ...

ومرَّة أخْرَى، كنتُ غبيا، لأنني بكتابتي ما كتبتُه لم أكنْ أفعل – مثل ما أنَا فاعله الآن - سوى تلويثِ صفاء الموت بضجيج كلامي وإثقالِ كاهِلِي بحمْلِ عُدَّة سَفرٍ لا يستوجبُ أيَّ زادٍ عدا العراء أو الصَّمْت. لقَد كنتُ أحاول عبثا أن أتواصَلَ من منطقة اللاَّ تَوَاصل. وهذا نص الخطابِ:

روضة الموتى في 1690/52/60

الآن وقد وجدتموني جثَّةً هامدة فإني أخبركم بأنني أنا الذي وضعت نهاية لوجودي وبمحض اختياري.ليس بيني وبين أي فرد من أفراد أسرتي أو أصدقائي ما أجبرني على محو نفسي. فقد نسجت حولي ليلي الخاص منذ لست أدري كم من وقت، لكن المؤكد هو أن هذا الليل قد تعاظم من حولي إلى أن صَيَّرَني أعمى بحيث لم أملك سوى تلبية ذلك النداء الذي ما انفك يتردَّدُ من بعيد ويناديني أنِ اخْلَعْ جُثَّتَكَ والْتَحِقْ بروضة الموتى. وفي هذا السبب وحده ما يكفي لتغفروا لي ما ألحقته بكم من حزن وغم...لاتحزنوا على فقداني. فأنا بموتي جعلت حدا لحزني على فقدانكم الأسبق. صدقوا أنني لم أركم طيلة العشرين يوما الأخيرة وإن كنت أقمت طيلتها بينكم.

التوقيع: جثة الْمَيِّتِ»

لم أفلح لحد الآن في فهم السَّبب في وجود ذلك الرَّابط الخفي الذي يشُدُّ هذا الخطاب إلى معدتي. فكلما قرأته تهيَّأتْ معِدَتِي للانقذاف أمامي وحاصرتني الأسئلَة إلى أن أتحول إلى علامةِ استفهامٍ كبْرَى وقد أخذتْ هيأة إنسَان. أَحَيّا كنتُ أَمْ ميتاً لَمَّا كُنْتُ أَكْتُبُ مَا كتبته؟ هَبْ؟ أنني مِتُّ وأنَّ خِطابي قد انتهى إلى من وُجِّهَ إليهم، فأيُّ وضعٍ يأخذه الآنَ؟ أكلامُ ميِّتٍ هُوَ أم كَلاَمُ حَيٍّ؟ إن كان كلامُ حيٍّ فصاحِبهُ الآن ميِّتٌ، وإن كانَ كلامُ ميِّتٍ فالميتُ لا يتكلَّمُ، لكنَّ كَلامَهُ هُنَا... ثمَّ الآن وقد صرتُ قارئ خطابَ موته، هل أنا الذي يَقْرَأُ هو أنا الذي يكتبُ؟ من رَدَمَ الهوة الفاصلة بينَ مَوْتِي وحياتي؟ كيف عبرتُ هذه الهوة؟ ماَ أغبَاني!، ثم ما أغبَانِي! وفي انتظار أن تُرْفَعَ عني هذه الغباوة ها أنذا أستهلكُ ما تَبَقَّى من حياتي وأنا لا أتوقَّفُ عن ترْدِيدِ الابتهالِ التالي بكبرياءٍ شديدٍ:

«لَقَدْ سَدَّدْتُ لِلْمَوْت لَكْمَاتٍ عَنِيفَة لَكِنَّ وَجْهَهُ كَانَ مِنَ الصَّلاَبَةِ بِحَيْثُ أَدْمَانِي وَهَشَّم عِظَامِي».

هذيـانُ ميِّت

لم يفهم ولن يفهمَ - ربما طالما عاش - سرَّ افتتانه بالموت. حاوَلَ مرارا ذلك، لكنَّه سُرعان ما كفَّ عن محاولاته تلك عندمَا أيقنَ أنَّ أول عتبات الفهْم هيَ الجنون أو الموت نفسُه وأنَّه متى جُنَّ أو مات أصبح الفهمُ عديم المعنى لأنَّه سيكون بكل بساطة قد أفلتَ من المدَارِ البشريِّ. وبما أنه جبَان غبيٌّ يخشى الجنونَ والموت فقدْ حوَّلَ فتنته تلك إلى ثرْثرَة تمكنه من نسْجِ مسَاحَةٍ وهميَّةٍ، فيُخَيِّلُ لنفسه أحيانا أنَّهُ حي، وأحيانا أخرى يخيِّلُ إليها أنَّهُ ميتٌ. تارة يتوهَّم الموتَ خرافةً، وتارة يتوهَّم أن الحياة هيَ الموتُ عينه. وحينَما يسْأم التقطيعَات، يقولُ في قرارة وحدته: «لا يوجدُ موتٌ ولا حياةٌ. كُلُّ مَا في الأمْرِ هوَ أنَّني أهذِي أو أنَّ اللهَ يتكلَّمُ عبري».

إلاَّ أن الثابت عنده هُو أنَّ موته قد كبُرَ معه وسيكْبُرُ إلى أن يحتوِيه كمَا ظلَّ هو طوالَ حياتِه يحاولُ احتواءه...

*

*   *

سمع الكلمةَ لأول مرَّة من جدَّته وهوَ ابن ثلاث سَنَوات. فقدْ كان يلعب مع أختِه التي ستمُوتُ قبلَه وهي التي كانتْ كتبتْ موته في تلكَ اللَّحظة بالذَّات عندما دفعَتْهُ وسَط ساقية ماء تصبُّ في صهريج... لم يفهم في تلكَ اللحظَةِ لماذا كانتْ جدَّتُهُ تبكِي وتصرخُ ولا مَعْنَى ما ردَّدَتْهُ بعدما انتشلتْهُ من المياه:

«كدتَ تموتُ يا ابْنِي! كِدْتَ تموتُ يا ابني!»

لكنَّ حصاد الجثث من حَوْلِه سَيَتَوالَى فيمَا بعد بإيقاع سريع فيُفْهِمُه مَا لم يفهمْه إلى أن لا يفهم أيَّ شيْءٍ مما فهمه: سيختفِي عددٌ كبيرٌ من أصدقائه، وسيرَى دَماً كثيرا وجثثا يلفظها البحرُ بيضاءَ كقطع الشحْم أو الصَّابُون بعدَ أن يُمسِكَهَا عدَّة أيام في قعره، ثم سيفقِدُ في سنةٍ واحدة عمَّةً له، وجدَّه، وجدَّتَهُ، وابنتي عمتيه، وأختِه...

كان مَحْوُ أخته هو أوَّلُ لقاءٍ وضَعَهُ وجها لوجهٍ أمام الموت...

واسْعِفِيهِ أيتها الدُّمُوع المتجمِّدة في ثنايا الأضلُع على إزاحَة حُجُبِ الذاكرة الماكرة وفتْحِ طيَّات النِّسْيَان...

يومئذٍ طعنه الخبر كخنجر حادّ. غمر رأسه طنينٌ. اسودَّ النهار في عينيه. هَوَى به المنزلُ في قعرٍ سحيقٍ. ارتعشَ كثيرا. احتوتهُ الغُصَّةُ. انفجرَ باكيا، ثمَّ صرخَ متمتما بكلماتٍ كثيرة غير مفهومة لا يَتبين منها الآن إلاَّ هذه:

«لاَ! لاَ! غيرُ معقول! غير معقول! لماذا؟ لماذا؟»...

انكسَرَ إيقاعُ البيت إلى أن انخرَط في الخارِج. أجسَامٌ تدخُلُ وأخْرَى تخرج. أقارب يهرعُونَ من مدن بعيدة. تلغراف للأب المقِيمِ في تخوم بعيدة... ووسط الفوضى التي جاءَ بها ذلك الموتُ مدَّ هُوَ فوضاه إلى جسَدِه الخاصِّ: حاوَلَ أن يموتَ. جرَعَ حفنة رملٍ وحصى، وأقراصاً عديدةً... لكنَّهُ «لم يَمُتْ»...

بعد أن مرَّغَ لهُ الموتُ الوجهَ في التراب فهو يقبلُ الآن أن يستقرَّ جسَدُ أختِهِ إلى الأبد في قرارة قبرٍ. يحرصُ حرصا شديدا على زيارتها عند كلِّ مطلَعِ شمسٍ، ويقطع لذلك مسَافاتٍ طويلة مشيا علَى القدمين دون أن ينالَ منه عياء أو مللٌ. وهُوَ مارٌّ بجوار المستشفَى الذي آوى أختَهُ قبيل موتها يُطِيلُ النَّظَرَ إليه ويردِّدُ في أعماقه كلماتٍ منكسراتٍ متحسراتٍ: «هُنَا مَاتَتْ أُخْتِي! هُنَا مَاتَتْ أُخْتِي!»، حتَّى إذا وصلَ إلى المقبرة سَقَى القبرَ ماءً ونثرَ فوقه زهراً وريحاناً، ثم أقرأَ عليه قرآناً...

إلاَّ أنَّ الذَّاكِرَةَ سُرعَان ما سَتَشْرَعُ في إسْدال حُجُبِ النِّسْيَانِ الماكِرَةِ الواحِد تلو الآخرِ فيقلِّصُ الزيارات إلى مرَّة كل يومين، فزيارة كل ثلاثة أيام، ثم زيارة واحِدة في الأسبُوع إلى أن يقطَعَ تلك الزيارَات بالمرَّة... وإذا سألتَهُ الآن: «أين قبر أختك؟» فإنه لن يحسَّ بطنينٍ في الرَّأس، ولَنْ يَسْوَدَّ النهار في عينيهِ، ولنْ يبكِيَ أو يحاولَ وضعَ حدٍّ

لحياتِه: سيقول لك بمنتهَى البُرُودَة: «لقدْ نسيتُه. إني عاجزٌ عن تمييزه وسطَ هذه القُبُورِ الكثيرة»...

ثمَّ واصل الموتُ زياراته لهُ بكثافةٍ، فانتشلَ منه الجدَّة، والأمَّ، والأبَ، وأخَوَيْنِ له، وزوجته الأولى، وطفليهِ الأوَّلينِ. في كلِّ مرَّة كانَ يسْوَدُّ النَّهار في عيْنَيْهِ، ويهوى به المنزلُ، ولا يصدِّقُ، ثم يعودُ فيصدِّق، ويزورُ المقابر يوميا، وينثرُ باقاتِ زهرٍ وريحان، ويُقْرِئُ قرآنا، ثم يقلِّص الزيارات، فيقطعُها بالمرة...

والآن حينما تُلْقِي إليه بخبر موتِ أحدهِم، مهمَا بلغتْ محبته له، فهو يكتفي باحتواءِ الفراغ بذهولٍ رهيبٍ حتى إذا انصرفتَ قام مُبتسماً وأحضر خمرا ودُخانا ليقضي ليلةً بيضاءَ...

*

*   *

فيما بعد سيقرأ كثيرا عن الموتِ، وسيجِدُ نفسه في كل ما يقرأه مُقَنَّناً في حتميةٍ لم تكن تحدِّد سائر تصرُّفاته فحسْب، بلْ وكذلك سُلوكَاتِ جميع من كَانُوا يحيطونَ به كلما فقد قريبا أو صديقا. لكنَّه سُرْعَانَ ما سيفطِن إلى أنَّ تلك الكتب كانتْ تقولُ كلَّ شيءٍ إلا الموت. ذلك أنه انتهَى أخيرا إلى أن الموتَ ليسَ هوَ سُلوك الأحياء إزاء شخصٍ ميت ولا كلامُهُم عن الموت المجرَّد. الموتُ سؤالٌ ضخمٌ يَستحيلُ الإجابة عنه بأيِّ خطابٍ لأنه انتفاءُ الخطابِ نفسه.

ألقى بالكتبِ جانبا وانخرط في طقسٍ يوميٍّ ينزل فيه إلى قنطرَةٍ شاهقةِ العلو ليضع جسَدَه على حافة إفلاسٍ لا يضاهيه إلا إفلاسُ البقاء على قيدِ الحيَاة. وهُو نازلٌ يغمره إحساسٌ مماثل لذلك الإحسَاس الذي يغمرُ المؤمنَ وهو يَقْرَأ قرآنا أو يردِّدُ أدعية قبيلَ النَّوْم تحسُّباً لمباغتة الموت إياه أثناء نومِه. ينزل إلى قنطرة وِسْلاَن، ثمَّ يقف في إحْدَى شرفاتها وينصرفُ لتأمل السَّيارات والناسِ تحته كحشرات صغيرةٍ وهو لا يكفُّ عن مُساءلة نفسِه:

«ماذا يتم حينما ألقي بنفسي من هذا العلُو الشَّاهق؟ ماذا يحدث عندما تكُونُ جثتي هاوية بسرعة خاطفةٍ إلى الأسْفَل بعد ارتمائي من هذه الشُّرْفة؟ فيم أفكِّرُ عندما أكونُ هاويا؟ بل هل أظلُّ أفكِّرُ؟ وهَلْ لتفكيري معْنى حينئذ؟ بالنسبة لمنْ؟»

وفي غمرَةِ تساؤلاته يُداهمه قطارٌ كقوة عمياءَ، فلا يفطنُ إلا وهُو عاضٌّ بيديه وأسنانِه على الشُّرفة الحديدية، قابعٌ بغباوة وسَط الضَّجيج وزوبعَة الغبار. طوال مضي القطار، بمحاذاة جسَده، يملأ رأسَه صُداعٌ مُرعب فتحمرُّ وجنتاه، ويطيرُ قلبُه خفقانا، وترتعشُ مفاصله... بينه وبيْنَ الموتِ مقدَار ارتماءةٍ تحت عجلاتِ القِطَار:

«ماذا يتم عندَمَا أُلْقِي بجثتي الآن تحتَ هَذِه القوَّة العمياء؟ أي شيءٍ يفْصِلُ بين ارتمائي وبين تحوُّل جثتي إلى رَمِيم؟ أيُّ إحسَاسٍ يغمُرني حينما يتم أوَّلُ تماسٍّ بين جسَدِي وبين إحدى عجلاتِ القطار؟

إلى مَاذا يؤول هَذا الإحساسُ حينما تُفْصَلُ مني اليد، ثم يُكَسَّرُ الْعَظْمَ ثم يُعْجَنُ الجسَدُ في بضْع ثوانٍ؟»...

ينتهِي مُرورُ القطار كمُداهمته، يمر كلمح البَصَرِ فتسْتَعِيدُ القنطرَة والسكَّة هدوءهما الفَارغ. ترتمي أجسامُ الأطفال المارَّة فوق القنطرة من جديدٍ...

أثناء عودتِه إلى المنزل، لا يكفُّ عن ترديد أنَّ العائد هو طيفه. أما هو فقد ماتَ قبل لحظات. لقد ارتمى من أعلى القنطرَة أو عُجِنَ تحتَ عجلات القِطار حتَّى إذا وصل إلى البيت راحَ يستكشف الغُرَفَ والأَفْرِشَةَ والكُتب بعين المنبعث. في الفراشِ يُدَاهِمُهُ استيهامُ الجسد المجزَّأ المعجُون، فتُهَشِّمُ عِظَامَهُ وتُقَطِّعُ يديه ورِجْلَيْهِ عرباتُ النَّهار في الليل الدامس، وتحوّلُ جثتَه إلى أشلاءَ غارقةٍ في بركة الدَّمِ التي يؤول إليها فِراشه فلاَ يفطنُ إلا وهُوَ قائمٌ يرسِل صُراخا مرعبا تتخلَّلُه ضحكاتٌ مدوِّيَةٌ لا تنقطعُ.

*

* *

كان الزمن قيلولةَ غُشْتَ، والمكانُ قَنْطَرَةَ وِسْلاَنَ الشاهقة ذاتها، والقطار يرسل منبه الصوتِ، بلا انقطاعٍ، مُعْلِناً مُدَاهَمَتَهُ، وقطعانُ البَشَر تتبعثر بجانبي السِّكَّة كأغنام مفزوعة، لما انبجستْ من القيظ ابنةُ سبعة عشر سنة.

أتتْ تتهادى وكأنها تغازل معشُوقا، بعدَما احتوت القطارَ كموضوعٍ جميل، ثم انتصبتْ وسط السِّكَّة بكبرياءٍ أبدى جسَدَها كجبلٍ شامخٍ يحيل إلى مجرَّدِ صدًى صامِتٍ ذلك الصُّرَاخ الذي تعالى مِنْ حَولها. لم يجرؤ أحدٌ من الصَّارخين على القفز نحوها وانتشالها من السِّكة. خِلاَل ذلك، كان القطارُ مندفعا كقوة قاهِرَةٍ عمياء وكانتْ، وهي واقفةٌ، تُدَشِّنُ مجزرتها بالانخرَاط في زمنٍ آخرَ...

بتقدم القطار كانت أصواتُ المتحلِّقين تُبْتَلَعُ، والضجيجُ المرعب يُطبِقُ على الآذان، والضحية تزدادُ بهَاءً. على بُعد أمتارٍ من الاصطدام كانتْ عيناها قد انخطفتا فبدَتَا كَلَيْلَيْنِ عميقين فيما بَدَتْ هي كالنَّائمَة. رحَل الدَّم عنْ شفتيها فمَالَتَا تحتَ أسنانٍ تبتسم باصطكاك لا ينقطع. أما جسدُها، فقد استسْلَم لرعْشَاتٍ أبدَتْهُ كَالرَّاقص أو المتألم. أثناء ذلك، كَانَ وجهُها قد استدَار إلى أن صار كالشَّمسِ المتعَاقِبَةِ الألوان...

على بُعد خطوتين مِنَ القاطِرَة خَزَرَتْ إلينا مرَّاتٍ عديدة متوالية في زمن سريعٍ كالبرق، بطئ كالأزل، ثم تمتمتْ كثيرا وهي تحرِّك يديها ورجليها فكانت أحد اثنين: إما كبشا يبتلع ما تُحْشَى به أسنانُه قبيل ذبحه أو خطيبا يجهِدُ نفسه في إيصال كلامه إلى قومٍ صُمٍّ عُمْيٍ؛ كانت تقول كلَّ شي، لكنَّ خطابَها كان يحتضرُ. كانتْ تتكلم خارج المدَار البشريِّ أو داخل علبةٍ محكمة الإغلاق، ولذلك قَصُرَتْ قامتها فجأة

قبيل الاصطدام، فبدتْ قزماً، ثم حشرةً، ثُمَّ كَلَّةً، ثم ذرَّةً أمام عظمة القطار لحظة التَّمَاسِّ...

انقضَّتْ عليها القاطرةُ فابتلعتْها كالطوفان. غاب جسدها وامتدَّتِ العرباتُ الماضيةُ بسرعة كحُجُبِ القيامة. اشتد خفقانُ قلبي، وامتلأ رأسي صداعا ودوارا. استمسكتُ بقوة قصد منع إتلافه... وفجأةً داهَمَ السكة صمتٌ رهيبٌ. كانَ القطار قد مر مثل مجيئه، فلم يترك وراءه سوى شبه جثة انطرَحَتْ بعيدا عن مكان الاصطدام، وقطع لحمٍ وعظم تبعثرتْ علَى امتداد المسافة الفاصلَة بين نقطةِ التَّصادُم ومسَاحَة استقرار شبه الجثَّة...

بجانِبَيِ السِّكَّة انتصبتْ عشرات الجثث سَاقَهَا الغبن كما تُساق البهائم إلى المجزرَةِ، و انخرطتْ في التهام الجثة الصغيرة المبعثرة بنظراتٍ نائمَةٍ أحالت المشْهَدَ إلى إعلاَنٍ صاخبٍ عن إفلاسِ الكائن. خِيطَتِ الأفواهُ وصُمَّتِ الآذانُ وتحوَّلَتِ الأجسادُ إلى آلاتٍ معطوبةٍ متناثرةٍ في صحراء المطلق. خلالَ ذلك كَان الموتُ قد أطبق على الآفاق، فبدَتِ الحياة قبرا هائلا انكشفتْ فيه أكفانٌ عملاقة تلُفُّ الأحياء بمنازلهم وملابسِهِم وسياراتِهِم وأوهَامِهِمْ...

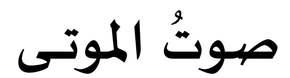
«يوم ارتميتُ تحت عجلات القطار وتحوَّلتُ إلى شبه جثة وأشْلاَء لحمٍ وعَظْمٍ، إذا كانتْ هي الميتةُ فأنا الواقفُ الآن أتأمَّلُ جثتها. أمَّا إذا كنتُ أنا الذي ارتميتُ تحت عجلات القطار أو ألقيتُ بنفسِي

مِنْ أعْلَى القنطرَة فهيَ الواقفةُ قُبَالَتِي الآن تتأمَّلُ شِبْهَ الجثة التي تبقَّتْ مني بعدما تحولتُ إلى بُقَعِ دَمٍ وأشلاء لحم وعظم ...»

ذلكَ ماكنتُ أردده في قرارة نفسي لما كسَّرَ صفاء المشهدِ وقوفُ سيارتين كبيرتين كتب على إحْدَاهما «الأمنُ الوَطَنِيُّ» وعلى الأخرى «الوِقَايَةُ المدَنِيةُ». أيُّ أمنٍ وأيَّةُ وقايةٍ؟ أَمْنُ مَنْ؟ وَمِمَّنْ؟ وِقَايَةُ مَنْ؟ وَمِمَّنْ؟

اندفعَ ضابطُ الأمْنِ نحو الجثة مزهواً ببذلته وقبَّعَتِهِ ونَيَاشِينِهِ، بِرُمُوزِ سلطته... إلا أنه بعدد تقدُّمه في الخطوات لم يكُن يفعل سوى إعادة إخراج ما أخرَجَتْهُ هي قبل قليلٍ، ولذلكَ سُرعَانَ ما انكشفتْ جثَّتَهُ قمامةً استقرَّ فيها البذلةُ، والنياشينُ، والقبعةُ، وجهازُ التواصل اللاسلكيِّ، والسيارةُ... كلٌّ بهدوء عميقٍ. حملتُ قمامتي إلى المنزِلِ وأنا أردّدُ:

«ما العائدُ الآن إلا طيفِي. أمَّا أنا فقدْ مِتُّ قبل لحظاتٍ. لقدْ داستني عجلاتُ القطار أو ألقيتُ بنفسي منْ أعلَى القنطَرَة...»


صوتُ الموتى

«وإذا صار أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار، جيء بالموت حتى يُجعل بين الجنة والنار ثم يُذبح، ثم ينادي مناد: يا أهل الجنة لا موت، فيزداد أهل الجنة فرحا إلى فرحهم، ويزداد أهل النار حزنا إلى حزنهم.»

(حديث نبوي أورده شمس الدين القرطبي في كتابه التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة، تحقيق وشرح وتعليق الدكتور السيد الجميلي، بيروت، دار ابن زيدون - القاهرة، مكتبة مذبولي، 1986، الطبعة الأولى، ج2، ص. 584 - 585)

قال: اِدَّخرْ ما نشتري لكَ به كفنا وقبرا.

قلتُ: أنا الآن مُكفَّنٌ وقبري محكَم المواراة علي...

لو ملكتُ لأنفقت جثتي وعقلي كُلا، خلال هذه البقية المتبقاة من حياتي، حتى إذا حانَ الموتُ لم يجد مني سِوى هيأةِ إنسان وزنُه بضع غراماتٍ أو أقل، طولُه بضع سنتيمترات أو أقلُّ، يُكابِد الوجودَ ولا يعْقِلُه...

لو ملكتُ لبذَّرتُ وأسرفت في التبذير حتى إذا جاءت المنية مضيتُ وبنفسي حسرة على ما سيكونُ قد فاتني إنفاقُه من عقلي، وجيبي، ولحمي، وعظمِي، ودمي...

لو ملكتُ لخلعتُ عني هذه الجثة كما يخلَعُ المرء لباسَه وانصرفتُ صامتا عاريا وحيدا كما ينصرفُ الكبش إلى مجزرته...

*

* *

قـالَ: قد أردتُ إسعادَك بهدية، فأيُّ الأشياء أحبُّ إلى نفسك؟

قلـتُ: لا يخفى عليكَ أنني الآن كهْلٌ. وإن شئت إسعادَ عجوز فلا تهبهُ شيئا يُمْلَكُ، هبْهُ شيئا يُنْفَقُ، لأنك إن تُهْدِهِ شيئا يملكُ فستكُون كمن عمد إلى قطعة لحمٍ أو سمكٍ أوثق ربْطها بخيط ثم دلاَّها إلى قطٍّ جائع حتَّى سَالَ لعابه. لكنْ كلما وثب الهرُّ على قطعة اللحم أو السَّمَك رفعهَا ممسكُهَا فبعُدَتْ عن الحيوان الشقي وقعدَ يتأملها ببصرٍ منكسرٍ حَسِيرٍ...

قـالَ: إذن فسأتحفُك بزيارة متحفٍ.

قلـتُ: أما وَسِعَكَ هذا المتحف الذِي نحنُ بدَاخِله محفُوظِين (أو معروضين؟) ما نحن، لو انكشفتْ عنا حُجُب الأزمنة السَّحِيقة القادمَة، في أعينِ جحافل الأقوام التي من داخلنا هي آتية؟ ما الذين

سبقُونا، الذين منهمْ أتينا، لو أزاحَ النسيان حُجُبَهُ، وأسدلَ الزمان ثنياته، ونهضتْ كلُّ رملةٍ وصخرةٍ، وذرَّةٍ وجمجمةٍ قائلةً: «هذَا مَكَانِي»؟ ما نحن لَوْ انفتق رَتْقُ هذا المدَار البَشَرِي، الذي نحن بداخلِه مَسْجُونِين، وانكشفتْ عوالمُ وكائناتٌ أخرَى؟...

متاحفُ تزحف وراء متاحف.. متاحف تقبع داخلَ متاحف.. متاحف تُتَاخِمُ متاحف.. إنِّي لأتمزَّقُ شفقةً وحسْرَةً علَى الذي راح يُفَتِّشُ قمامات الأزمنة وتفاهاتِ ما يُدْعَى تاريخا حتى إذا عثر على فضلاتٍ حفِظها وقالَ: «إنمَا هذِهِ أشيَاء ثمينةٌ لا يليقُ بها إلاَّ متحفٌ».

*

* *

قالَ: «إن المرءَ عندما يسمَعُ كلامَك هذا ليُخَيَّل إليه أنَّك قدْ هبطتَ لتَوِّكَ من كوكبٍ آخر!»

قلتُ: «اعلم أيها الرفيق أنَّك لستَ سِوَى كبشٍ يعلف ليلة مجزرةٍ آتية لا ريْبَ فيها، لنْ تُؤخَّر عن الموت إلا مقدارَ ما يقضيه الجزَّار في نحرِ كبشٍ أول وسلخه لينتقلَ بعد ذلكَ مباشرةً إلى كبش ثان. فاعدُدْ بالسَّنَوَاتِ ما تبقَّى لك! أنا الآن واقفٌ قبالة موتي كلما أبصرتُ جثتي استحوذ عليَّ ما يستحوذ عليكَ عندما تصرع أضحيتك وتنصرف تتأملها بنظرة إشباعٍ غامضةٍ متحسِّرَة متأسفة. متى نحرْتَ خرُوفاً أو كبْشاً وعلقتَ جزْرَتَه اذكرْنِي، فما ذلك الكبشُ إلا أنا. أنا الآن

ميتٌ، لكنني أتكلَّم. أمَّا أنت فصامتٌ، ولسْتَ ميتا ولا أنتَ بحي، لأنك سَجِينُ وهْمِ الخلود. أنا الآن أعرفُ أن حياتي مرْسُومةٌ في فاتورة قُيِّد عليها سنةُ موتي، وشهره، ويومه، كلٌّ في أجلٍ دقيق. هل تعرِفُ أنتَ متى ستمُوت وأينَ وكيفَ؟ أنتَ تؤجِّلُ موتك كُلَّ يومٍ، والمنية لنْ تمهلك إلى الأجلِ الَّذِي ترغبُ فيه أو تتوهمه. فقد يداهِمك الرَّدَى غدا في الصباح الباكرِ من حيث لن تحتسِب. أنا الآن مُوشِكٌ على الانمحاء، أبيتُ غير طامعٍ في الإصباح، وأُصْبحُ غير طامع في الإمْسَاء، ما كلُّ ساعة جديدة عندي في الحياة سوى هبةٍ أخْرَى يهبني إياها فائضُ حياتي. أنا كلامُ صمتك ونُورُ عمَاك. أنا صرخةُ الموتِ الكامِنَة فيك كلما حنَّتْ إلى الكلام لجمتَها وعقَلتَها وأقعَدْتَهَا. أنا صوتُ الموتى.

*

*   *

قـالَ: «ما الحياة؟»

قلتُ: «عورةٌ إن لم تستدبرها استدبَرَتْكَ. قطعةُ برازٍ تُحِيط بالمرء حيثما يضع قدميه يقع فيها. اصطبلٌ واسعٌ ما الناس بداخله إلا أكباشٌ تعلف ليلة مجزرة آتية لا ريب فيها. وهْمٌ يركب رأس المرء فيخال نفسَه مركزاً والكونَ محيطاً وينسى أنَّ الكونَ هو المركز فيما لا يعدو هو محض محيطٍ وهميٍّ عابر.

الحياة حلمٌ لا يصحو المرء منه أبدا؛ الحيُّ يحلم داخل صحوه، والميت صاحٍ وسَط حلمه. الحياة أمانةٌ مُودعةٌ في جثة كل امرئ؛ بيضة يحملها المرء بمنتهى الحرْصِ في كفه، بيد أنه إن أحكَمَ الشدَّ عليها هَوتْ وسقطت ثم انكسَرَتْ من حيث لم يحتسب وفي الوقت الذي لم يتوقعه، وإن أمسَكَها برفق هوَتْ وسقطتْ ثم انكسرتْ من حيث لم يحتسب وفي الوقت الذي لم يتوقعه. الحياةُ مزبلةٌ كبرى ما البشرُ فيها سوى نفاياتٍ ذات روائح عفنة نتنة تزكم الأنف ويقشعر لها الجلد. هي إفلاس شيءٍ ما أو موتٌ في حالة إفلاس.

الحياة حياتان: حياة فوقنا وحياة تحتنا. أما التي فوقنا فهو هذا القِدْرُ الذي ما نحن فيه إلا حبات توابل لا نعلم متى سَيُطبخُ ولا ما يُطْبَخُ فيه ولا من يطبخه. وأما التي تحتنا فهي هذه الكائنات والأشياء التي نصنَعُ بها ما نشاءُ وهي لا تدري ما نفعلُهُ بها ولا لماذا نقومُ بذلك ولا منْ نحن...»

قالَ: كيف ذلك؟

قلتُ: تأملتُ المرءَ فوجدتُه لا يخلو من أن يقيمَ في قبرين. قبر يشيده هو لنفسه، وقبرٌ يشيده الآخرون له. فأمَّا الذي يُشيِّدُه لنفسه بنفسه فيُسَمَّى منزلا أو بيتا، وأما الذي يُبْنَى له فيسمَّى قبرا. ومتى مرَرْتُ بحيٍّ من أحياء الأحياء عجبت لسُمُوِّ الذوق الذي يَبْنِي به كل شخص قبره. أما أنا فأتمنى أن لا يكون لي قبرٌ أصلا...

*

* *

قـالَ: «ما الموت؟»

قلـتُ: «هـو أن يكُفَّ المرْءُ عن أن يكون مِلْكاً لنفسه. أن يتحوَّلَ إلى كلمة تتقاذفها وتتلاقفها الألسُن والآذان. عبورٌ إلى الجهة الأخرى حيثُ لا فكر، ولا كلام، ولا صمت، ولا سمع، ولا بصر، ولا ألم، ولا فرحة؛ انتقالٌ إلى حالةٍ أخرى يصير فيها الوجودُ ذكرى آتيةٌ من المستقبل والحاضرُ أفقٌ يلوح من ماضٍ سحيقٍ. الموت صحوٌ لا يحلم فيه المرء أبدا؛ الميت صاح داخل حلمه، والحيُّ يحلم داخل صحوه. الموت إفلاس شي ما أو حياة في حالة إفلاس.

الموتُ موتان: موتٌ لكَ وموتٌ عليكَ. أما الذي لك فهو أقربُ إليك من حبلِ وريدك، يُلازمك كجلدك وعظمك. وأمَّا الذي عليك فأنتَ حبلُ وريدِه، ما أنتَ إلا نعلاه أو ظله.

قـال: «قد أشكَلَ علي أمرك فما عدتُ أدري أوَحَيٌّ أنت أم ميت. أوَ ميِّتٌ أنت الآن أم حي؟».

قلـتُ: «أنا الآن مولودٌ، وبقيةٌ، وعائدٌ. فقد مِتُّ أربع مرات أو خمس على الأقل: مرَّة غرقتُ، فقيل انتُشِلْتُ. ومرة ارتميتُ من شرفة

قنطرة وِسْلان الشاهقة العلو، فقيل نجوتُ. ومرة جرعتُ حصى ورَمْلاً وأكياس عقاقير قاتلة، فقيل أنقِذتُ. ومرَّة ألقيتُ بجثتي تحت عجلات القطار، فقيل أفلَتُّ... والآن وقد ابتلعني الماء، وحولتي عجلات القِطَار إلى أشلاء مبعثرة... من أنا؟ أأنا ميتٌ عاد إلى الحياة أم مولودٌ جديدٌ خرج لتوِّه من رحِمِ أمه؟ أأنا بقيَّةٌ من حياتي التي قضتْ في البحر أو داخل ألسنة النيران أم جثةٌ غسِّلتْ وكُفِّنَتْ ودُفِنَتْ وتحلَّلَتْ فصارت عظاما وترابا؟...»، هذا ما لا أتوقف لحظةً واحدة عن طرحه. وكلما أعياني الجوابُ قلتُ: «أنا ذلك كلّهُ: مولودٌ، وبقيةٌ، وعائدٌ».

*

*   *

قال: «هل أنت متحسِّرٌ على شيء؟»

قلت: «بنفسي حسرتان: حسرةٌ على هذا الحاسُوب البديع: رأسي الذي سيدمر بعدما جمع ما لا يُعَدُّ ولا يحصى من المشاهد والأشخاص والأفكار التي أنفقتُ في جمعها سنوات طوال من الحبو، والرَّضَاعَة، والجرْي، والقِرَاءة، والضحِك، واللعِب، والبكاء... وحسرةٌ على كوني بعد محوي لن أستطيعَ أن أتحسَّرَ على الإطلاق...

*

*   *

قـالَ: «هل لك وصية فنحققها بعد موتك؟»

قلتُ: «تركتُ فيكم خمس وصايا:

الأولى: لا تحققوا وصايا الموتى على الإطلاق، لأن ما يُدعى وصاياهم يكُفُّ عن أن يكُون كذلك بمجرد ما يموتون. أما أنا فلن أوصِي أحدا. حينما سأموتُ وأتحوَّلُ إلى جثةً هامدةً، سأصير عَدَما مجسَّدا. سأتشيؤ. فافعلوا حينئذٍ ما شئتم بذلك الشيء الذي سأصيرُ إليه بعد موتي.

الثانية: إذا اختلى رجلٌ منكم بامرأة أو اختلتْ به وقضى كلاكُما حاجته من الآخر فلا تقولا منفردين: «اقتنصْتُ كذا لذة من صاحبي/صاحبتي» أو «أنزلتُ كذا مرَّة» أو «نلتُ كذا رعشة من جسَدِ الآخر»... بل قـولا مجتمعين: «أنزَلْنَا كذا مرَّةً»، أو «ضَاجَعْنَا كذا مرَّةً» أو «نلنا كذا رعشةً»، لأنَّ لا أحد منكما في الحقيقة يكونُ اقتنصَ لذت«ه» من جسد الآخر. كلُّ ما تكونان قد فعلتماه، بعدَ الجماعِ، هو أنكما نِلْتُمَا رعشةً أو رعْشاتٍ من جسدٍ غَائبٍ، قد يكُون هو جسد اللذة الأكبر، ما لم تكونا معا لا تعدوان مجرَّد أداةٍ في يد هذا الجسَدِ الذي يقتاتُ بالاستلذاذ من جِسميكما، الذي «يُضَاجِعُ بِكُمَا». وعليه، وبلُغة الحساب هذه المرة، إذا تضاجع رجل وامرأة منكم وأنزلَ هو مرَّاتٍ أربع واستجابت له هي في كل مرَّة بإنزالةٍ، فما ينبغي القيام به ليس هو أن

يقول الرجلُ: «ضاجعتُها أربع مرات» وتقول المرأة: «ضاجعتُه أربع مرات»، وإنما هو يقول الاثنان معا: «لقد ضَاجَعْنَا ثماني مرَّات»...

الثالثةُ: إن رُمتم فحصَ تاريخ النَّوع البشري أو استحضار المسالك التي قادتْهُ إلى ما أنتم عليه الآن فلا تبحثوا عن مخطوطاتٍ ولا تستنطقوا مآثر ولا بنايات. استحضروا أضرحةَ النِّسَاء. متى يرقد الرَّجُل منكم بجانب المرأة، ويلتحم جسده بجسدها، ويلج بسِرِّهِ سِرَّهَا، وتضعُه نشوةُ الالتحام في حال بين النوم واليقظة...، فَلْيفتحْ جيِّدا عيني النَّوْع بداخله. آنذاك سيَرى جحافل كل منْ مضَوا منذ العصور السحيقة؛ سيسمَعُ وقعَ الأقدام والحوافر، وقرع الطبول وأنَّات المزامير، ويشاهد دخان البارود، ويستنشق طراوة أعشاب البدءِ التي نثر فيها الإنسان «الأول» أولى خطواته... متى يفعل المرء منكم ذلك يرَ أنه ما كان ليكون لو لم يرقد منذ العصور السحيقة رجلٌ بجانب امرأةٍ، ويلتحم جسده بجسدها، ويلج سِرُّهُ سِرَّهَا، وأنه هو الآخر، بفعله ما يفعله الآن، لا يعدو مجرَّد ناقلٍ لأمانة النَّوع التي تلقاها من أسلافه الذين تلقوها بدورهم ممن أضنانا البحث عن معرفته دون أن نَصِل إليه... وعليه فمستودع تاريخ النَّوع هو سرُّ النساء؛ وبولوج السِّرِّ تتحقق وتتجدَّد وقائع هذا التاريخ وأحداثه. ومتى أردتم وضع حدٍّ لهذا التاريخ أو استئصال النوع من البرية ابذروا كراهية الأطفال في نفوسكم، ثم اعزفوا عنِ الجماع.

الرابعة: لا تتباهوا بمحبة الأطفال أو تتخذوا من الاكتراث لمصيرهم ذريعةً للبقاء في هذِه الحياة. منْ ضاقتْ به سبُل العيش وأرادَ التخلص منها فليعجِّل بوضع حدٍّ لحياته، لأنه عندما يرُومُ القيام بذلك ويتراجعُ قائلا: «لولاَ هؤلاء الأبناء لما تردَّدْتُ لحظةً واحدةً في وضع حدٍّ لحياتي، لكنني أتخيلُ ما سيُلحِقه بِهم موتي من غبنٍ وحزنٍ وغمٍّ، أتخيَّل ما سيُصِيبهم منْ وحدَة وضياعٍ ويتْمٍ...»، عندما يفعل ذلك، فإنه يكُون مخطئا مرَّتين: مرَّة لكونه يعتقدُ أنه هو الذي يحبُّ أطفالَه، والحالُ أن شيئا ما هو الذي يحبهم من خلاله، شيئا قد يكون هوَ الحياة نفسها أو النوع البشريّ نفسه. ومرَّة أخرى (يكون مخطئا) لأن وطأة اليُتْم والضيَاع والوحدة التي يتخيلها ستلحَقُ بأطفاله، تلك الوطأةُ لا تقيمُ إلا في ذهنه (متى رأيتم أبناءً ثقُل عليهم فُقْدان الأب أو الأم إلى أن استحَالَ عليهم تحمل الحياة بدونهما؟). فمهما بلغتْ درجة تعلقهم بهذا الأب، ومحبتهم إياه، فإنه ما يكادُ يقضي أسابيع في القبرِ حتى يقطع النسيان حبلَ المحبة... بكلمة واحدةٍ، من ضاقتْ به الحياة وأراد التخلص منها فليُعَجِّل بوضع حدِّ لنفسِه دون أن يكترث لمآل أي شيءٍ يخلِّفُهُ وراءَه. فالحياة تتكفَّل بجميع الأشياء من بعده!

الخامسة: لا تحكموا على أظنائكم بالإعْدام حتَّى لا تجعلوا من الغبن العالق بكُم غبنين. إن تفعلوا تكونوا كالمرء يقرض الآخرَ مبلغا ضخما فيُبَذِّرُه المقترض إلى أن يستحيلَ عليه إرجاعَه فيقلبَ اللعبة وينتحرَ مخلفا وراءَه دائنه يفترس رئتيه غضبا وحنقا. كأنِّي به يقولُ

لغريمه متحدِّيا: «والآنَ الحقْ بي إنِ استطعْتَ!»، فليلْحَقْ به إن استطاع...

إن تفعلُوا تُغبنُوا، لأنكُم فيما تعتقدون أنكُم «تعاقِبون» ظنينكم فإنَّكُم لا تفعلون سوى إرسالِه إلى وجهةٍ غريبةٍ عن كل عقاب: لن يُستسَاغ حكمُ الإعدام إلا إذا توفَّرَ شرطان: الأول أن يكون من ينفذ فيه ذلك الحكمُ يحيا بعد موتِه فيحسُّ بأنه قد حُرِم من الحياة باعتبارها «امتيازا»، بأنّه قد عُزل وحده عن الأحياء. والثاني أن تكُونوا أنتم غير فانين علَى الإطلاق، فتلتذوا بكونكُم بإعدامكم ظنينكم إنما أرسلتُموه إلى مساحة لنْ تطأهَا أقدامكُم أبدا. وحيث أن الشرطين ينتفيان فأنا لا أرى لحكم الإعدام أي معنى».

*

*   *

قال: «إن كلَّ قتلٍ للمجرم لَيَحْمِلُ في طَيَّتِهِ عِبْرَتَيْنِ: أولى يأخذها الأحياء أو المجرمون المحتملون: فكلُّ شيءٍ يتم كما لو كان القاضي بإصداره حكم الموت في حق شخص ما إنما يحذِّر الآخرين قائلا: «حَذَار أن تفعلوا كذا. لئن فعلتم لأعجلَنَّ بموتكم فأحْرِمَنَّكُمْ مما كنتم ستستمتعون به، ببقائكم على قيد الحياة، لو لم ترتكبوا ما اقتضى قتلَكم». الثانيةُ يأخذها الشَّخصُ نفسه الذي سيُعدم، لكنه يأخذها فقط خِلال الفترة الزمنية الفاصلة بين النطق بحُكْم الإعدام وبين

تنفيذ هَذا الأمر. فخِلال هذه الفترة يحيا الظنين موتَه؛ يتحسَّر دون أن تنفعه حسرَة. يمرُّ كلُّ شيءٍ عنده كأنَّه يتلقى في كلِّ لحظة قولة تأتيه من صوتِ القانونِ مرددة: «ها أنتَ الآن حيٌّ. لكن اعلم أنك في يَوم كَذا، ساعة كذا ستحرَمُ مما أنت إياه الآن. ستُقتل. ستُعدم. ستُمحى...».

قلت: بهذا المعنى، فإعدامُ الفرد يتم خلال حياته وليس بموته. أما حينما يُقتلُ فعلا فإن فعلَ القتل نفسِه لا يصبح إعدَاما... وحيث إننا جميعا سنموت فوُجودنا مماثل تماما لتلك المرحلة)إن لم تكن هي عينها(التي يجتازها من سيُعدم، من وقتِ النطق بالحكْم إلى لحظة تنفيذه. إننا جميعا أحياءٌ وأمواتٌ في آن واحد».

*

*   *

قال: «فمنْ يميتنا؟ وإلى أيِّ حدٍّ يمكن تشبيهه بقاضٍ؟ ثمَّ عندما يميتنا هلْ يشعرُ بالإحساس نفسِه الذي يشعُر به القاضي وهو يتلفظ بحكم الإعدام؟ هل يقتلنا لتقديم عِبرة ما لكائناتٍ أخرى (كما ذَكَرْتَ أنتَ قبْل قليلٍ بشأن أولى عِبْرتي الإعدام؟) من هي تلك الكائنَات؟ أين توجدُ؟ أيُّ ذنب ارتكبناه حتى يقتلنا؟ لماذا تمَّ تفضيلها علينَا؟...»

قلت: معذرة، ثم معذرة. إنّي محاصَرٌ بمداري البَشَرِيّ. مَسْجُونٌ داخلَ جُدْرَان عَقْلِي. لَسْتُ أدري!.»

روضة الموتى

كاد الموتُ أن يشبه دخولَ الحمام لولا أن ولوجَ الحمَّام يعقبه خروج فيما الموت هو الخروج نفسه». هيا انزعْ حذاءَك يا صاحِ وتهيأْ لدخول موتك كمَا تدخلُ حَمَّامَكَ...»

برأسي صداعٌ ودوارٌ، وأنا ممدود وسط هالةٍ من البخار، والعرقُ ينسَاب مني انسياب السَّيل المتوحش... وهذه الكُتَل البشرية المحيطة بسَريري تبدُو لي سوى دمىً تحكِي الخيانة من عالم بعيدٍ. أما أصواتُ الأطفال اللاعِبِيَن في الزقاق فتتهاوى على مسامعي، من النافذة المحاذية لسريري، كنباح جِرَاءٍ مسعورةٍ... ومن شاء الوقوف على ذلك بنفسه فلْيَتَنَاوَلْ علبة أقراصٍ من الأسبرين وهُو في أقصى درجات الْحُمَّى ثُمَّ لِيُجْهِدْ أَسْنَانَهُ في تكسير عُنُقِ زجاجةٍ سميكةٍ.

أنا الآن جسدٌ مُفْلِس وما هذا العويلُ الذي يحيط بي إلا إعلانٌ عن إفلاس آخر.. عما قريب سأصير جثة هامدة لن يُتَخَلّص من رُعبِها إلا بحملها كَكِيسِ إسمنت وإحكام مواراتها تحت التُّرَاب... الدَّفْنُ هو أبلد تعبيرٍ عن كوميديا الوجُودُ البشري. يا لهول الغبن الَّذِي يُصيب

الأحياءَ! فَهُم حينمَا يموت أحدُهم يُسقِطون عليه أفكارهم وأحاسِيسهم من مساحَة تواجُدِهمْ، فيعاملونه كمَا لو كان مازال حيا: يَبْكُونَهُ، ويُلْبِسُونه، ويُعَطِرُّونَهُ... أرى الآن مُغَسِّلِي يمسِكُنِي ويَلُمُّنِي بين يَدَيْهِ كما يَلُمُّ الخَبَّازُ قطعة العَجِينِ فأنهض وأُوسِعُه ركْلا ولكْما وأنا أُعَنِّفه:

«مَا مَعْنَى مَا تَفْعَلُهُ بِي الآنَ؟ إِنَّنِي ما عُدْتُ إِنْسَاناً. أَنَا ٱلْآنَ مَمْحُوٌّ دَاخِلَ حِيَادٍ مُطْلَقٍ، وَسَأَمْكُثُ فِيهِ حَتَّى وَإِنْ هَجَرْتُمْ جُثَّتِي أَوْ أَحْرَقْتُمُوهَا أَوِ ٱلْتَهَمْتُمُوهَا.»

أُرَكِّزُ بَصَرِي على الساعة الحائطيةِ وعقاربُها مُثَبَّتَةٌ في الخامسة مساءً وأنا مُلْقًى فوق السريرِ وشريطُ وقائع حياتي يمرُّ أمامي بسُرْعةٍ مذهلةٍ، فلا أقوى على المتابعة... يَعْصِرُنِي الألَمُ والدُّوَارُ يُزَوْبِعُنِي...

أخَذَ جسَدي في التمطُّطِ من حَوْلي كعجينٍ رَخوٍ أو سائل لزجٍ فلم أعُدْ أتبيَّنُ حُدُودِي... تغيَّرَتْ نبرة الأصواتِ المحيطةِ بي فصار إحسَاسِي كمَن أنهكَهُ الجُوعُ والتعب، وأحرَقَهُ القيظُ في غمرة سفرٍ لا بِداية له ولا نِهاية، إلى أن تهَاوى بين الإغمَاءِ واليقَظَةِ. أسمعُ أصْوَات آلات لم يَسْبِق لي أن سمعتُ مثلها قط، وصفَّارَات إنذار هائلة، وخوَار ثيران ذات كبر مرعبٍ. وعندما يضع أحَدٌ ممن حَولي يده على جسمي فإنّي لا أتبيَّنُ مكَان وضعها ولا المسَاحة التي تشغلها. كلُّ ما أحسُّ به هو ألمٌ فرحانٌ يجتاح جسدي ويتمطَّطُ من حولي إلى ما لانهاية...

بَدَأْتُ أستأنسُ بوضعي الجسَدي الجدِيدِ، فأصبح وُقوفي وقُعُودِي وتحرُّكِي، من قبل، ليْسَ غريبا عني فَحَسْب، بَلْ ومستحيل التَّصَوُّر؛ كأنه لم يكن سِوى خيانةٍ عظمى... يُزْعِجُنِي صوتُ الباكين المحيطينَ بِي الذي يصِلُ إلى مسامعي كصدىً تتقاذفه جبالٌ بعيدة لأنَّه يُكَسِّر أصواتَ الطيُور، وأسْرَابَ الرَّيَاحِين، والفضاءات المترامية من حولي، وروائح الملائكَة التي تغَازِلنِي... أخذ السَّرير يسْبَحُ بي في الفضاءات الواسعة. أريد أن أتكلم. لا أَقْوَى على الكلاَمِ... أُطلِقُ صرخة عُظْمَى. أتوهم أنها هزَّت الجدْرَان، إلا أنها في الحقيقة لم تتردَّد إلا في أعماق وحْدَتِي:

«أَنَا وَحِيدٌ! أَنَا وَحِيدٌ»!

وفجأة أخذت هذه الوحْدَة تنكَسِرُ داخل سيل موحشٍ من رعْشَاتِ الإنزال. تَنْعَصِرُ عروقي، وينتشر دَبيبٌ في عِظامي كافَّة أُحِسُّ معه بأن مخي قد تحول إلى سائل يغلي. تجتاحني زَغْدَاتٌ تسلمني إلى عياء تام. أفتح عيني.. عَقَارِب الساعة مثبتة في الخامسة والرُّبع مساءً، وأنا ملقى علَى السَّرِيرِ، وشريطُ حياتي يمرُّ أمامي بسُرْعةٍ مهولةٍ.

يَعْصِرُنِي ٱلألَمُ والدُّوَارُ يُزَوْبِعُنِي...

أُثَبِّتُ أذنيَّ في ما يحيط بي. عادتْ أصواتُ الأطفال اللاعبين في الزُّقاق تَتَهَاوَى على سمعي كنباح جراءٍ مسْعُورةٍ. استسلمتُ لنومٍ عميقٍ ملفوفا وسط خَيْبَةٍ سوداءَ، ومن بعيد كان نداءُ الموتِ يسْتَدْرِجُنِي:

«هيا انزعْ حِذاءَك يَا صَاحِ وتَهَيَّأْ لِدُخولِ موْتِكَ كَمَا تدْخلُ حَمَّامَك»...

*

* *

خَلَعتُ حذائي وملابسي دافعا عَرَاءَ الكَائنِ بداخلي إلى تخومِه القُصْوَى التي لم تكن جثتي إلى ذلِكَ الحين سِوَى انفلاتِ مَارِقٍ منها؛ توضَّأْتُ بوقودٍ وصلَّيت على نفسي بابتهالاتِ وتراتيل التِّيبِتِ الْجَنَائِزِيَّةِ التي يُردِّدُها الرَّاهِبُ وهو يفصل رأسَ الميّت عن جثته وينفخُ الهواء في أذنيه وأنفه حَتَّى إذا انتهَى هَشَّمَ الرَّأْسَ بحجرٍ صلبٍ وانصرف يفصلُ لحم الجثة عن عظامها بِمِدْيَة طويلة حادة، ثم ألقى بالجُثَّةِ المحلولةِ إلى أسراب النُّسُور والغِرْبَانِ...، صلَّيتُ على نفسِي ثم سكبتُ الوقودَ على الكتُبِ والفِرَاش وجَسَدِي، وأطلقتُ النارَ من عُقَالِهَا الْمُقَدَّسِ، وجَلَسْتُ أتفرَّسُ فِيَّ مَلِيّاً. أطلقتُ صرخةً مرعبة، ثم انقضضتُ على الموت لأنني ظللتُ إلى تلك اللحظة أومنُ بأنَّه جبانٌ حقيرٌ إذا لم تسبق إلى مُداهَمَتِه بادَرَ هو إلى مُداهمتِك بوجهٍ بَشِعٍ قذرٍ تفوح منه رائحةٌ كريهة.

ثوانٍ قليلةٌ جدّا كانت كافية لانتفاخ جسَدي. أحسَسْتُ بأنَّ جثتي قد تضاعَفَ حجمُها خمس مراتٍ والشحم بداخلي يغلي ويحاولُ عبثاً أن يتسلل من ثقوب جسَدي التي كانت قد انغلقت تماماً... خلال

ذلك كانت النَّار تصدِرُ حنينا موحِشا كرياح البحْر الهوْجَاءِ، وكانت الغرفة قد تحولتْ إلى عُلبةٍ من نار، ولذلِكَ لم يحدث انفجارُ جُثَّتِي سِوى صوتٍ خافتٍ كصوتِ انطفاءِ جمرةٍ نَارٍ أو قطعة حديدٍ ساخنةٍ في بقعة ماء. وفيما تكَوَّنَتْ فوق جلدي قشرةٌ خشنةٌ سميكةٌ تمزَّق بطني لعنفِ الانفجار وأخذَتْ الأمعاء وفضلات الأكْلِ والشَّحْم في الغَلَيَان والذوبان، فتحولتْ إلى رائحةٍ كريهةٍ تثير القشعريرة والرغبة في القيء. وفجأة تهَاوى عقلي كمنزلٍ داهمه زلزالٌ عنيفٌ فتَشَتَّتَ الإحساسُ بداخلي وتبعثرت أعضائي. ولم أكن أعرِف من قبْل أن ذلك كانَ سيُحَقِّقُ رغبةً كانت قد خَطَفَتْنِي منذ أن هبَّتْ عليَّ نسمةُ هذه الجهة الأخْرَى؛ فقدْ كنتُ أرغب في أن تتفكَّكَ جثتي وتنتقلُ من شكلها الحالي إلى شكلٍ قَنَوِيٍّ ينفصل فيه كلُّ عضو عن الآخَرِ ويشتغل بمعزلٍ عنه داخل هيأةٍ مُثَبَّتَة في الحقولِ، والمحيطاتِ، والأفلاكِ، والهواءِ الطلقِ، والكائناتِ البرِّيَّةِ...

ولم أكُنْ بتلك الرغبة إلا أَجْتَثُّ نفسي الزمن الحالي لأستقرَّ في عُمْقِ زمنٍ آتٍ لاريب فيه سيشهدُ فيه العالَمُ تَكنَجَة تُتَبِّثُ كل شيء في كُلِّ شيء إلى أن يتحوَّلُ الكون برُمَّتِهِ إلى مجرد آلة صغيرة تشتغل من تلقاءِ نفسِهَا، آلةٌ مَا الزمنُ الرَّاهنُ بالمقارنة مَعَهَا إلا عصر حجريٌّ آخَر.

*

*   *

جُمِعَ رمادُ الجثة بعدما عُزِلَ بعنايةٍ متناهيةٍ عن رَمَادِ الكتب والفِرَاش والخشبِ والملابس ثم وُضِعَ فِي كيسٍ طاهر مُعَطر أنيق أُجْرِيَتْ عليه كافة ترتيبات الطقوس الجنائزية، ووُرِيَ داخل قبر كبير...

أثناء دفنهِ، كان الرَّمَادُ داخِل الكيس مَهْوُوساً برغبة النُّهوض وإشباع الدافنين لكماً ورَكْلاً وهو يُعَنِّفُهُمْ قَائِلاً:

- مَا مَعْنى مَا أَنْتُمْ فَاعِلُونَ بِي الآنَ؟ أَمَا عَلِمْتُمْ أَنَّنِي ٱلآنَ مَمْحُوٌّ دَاخِلَ حِيَادٍ مُطْلَقٍ، وَأَنَّنِي سَأَظَلُّ عَلَى مَا أَنَا عَلَيْهِ الآنَ حَتَّى وَإِنْ نَثَرْتُمُونِي فِي الْهَوَاءِ أَوْ غَبَّرْتُمْ بِي النَّبَاتَ؟!

كان الرمادُ صائبا. ولما كُنْتُ أعتقد أنه كان صائبا لم أكنْ أنا الآخرُ سوى امرئٍ؟ مغبونٍ : فقد كنتُ أُسْقِطُ عليه أفكاري من ضفَّة وُجُودِي وأعامله مِثْلَ حَيٍّ. أما علمتُ أن الرماد كانَ ما عادَ إنسانا، وأَنَّهُ كَانَ قد مُحِيَ داخل حيادٍ مطلقٍ حيث سَيَمْكث مهما تكن المعرفة التي أُشَكِّلُهَا فِي شَأْنِهِ؟!

*

*   *

إن أُحادِيَةَ حركة الموْتِ التي تُحِيلُ إلى استحالةٍ كلا من رجوع الرَّماد إلى هيأته، والميت إلى قبره، ودخول الأحياء إلى روضة الموتى بضمَانة مُسبقة لعودة أكيدة، هيَ الصورة الْمُثْلَى لجبنِ الموتِ وبشاعته.

فهُو لا يملكُ أدنَى درجةٍ من التفكير، ولا يشتغلُ إلا كآلة عمياءَ. إنه لا يفعلُ دائما سِوَى إدخَال المرء إلى الموتِ أو إخراجه (من الحياة)، لا مجالَ عندَهُ إطلاقا لإدخاله وإخرَاجِه معا، في آن واحدٍ... وكَوْنُهُ كذلك يجعله ذا صلةٍ بالجنون أكثر من أي شَيء آخر، ولذلك فالسَّبيل الوحيد للانتقام منه هو تسْديد لَكمَاتٍ عنيفةٍ لوجهِهِ من الموقع نفسِه الذي يسدِّدُ مِنْهُ الأسْوِياء لكماتهم إلى المجانينِ.

ضعْ بالتناوب قدما في الموتِ وأخرَى في الحياة، ثم امْضِ بسرعة قُصْوَى وانظرْ ماذا يجري...

لما عزمتُ على وضع حدٍّ لحياتي بتناول كميةٍ كُبرى من العقاقير وإحْرَاق جثتي، ولما دَبَّجْتُ قبيل ذلك خِطاباً أوضِّحُ فيه أسْبَاب انتحاري وأبرئ فيه سَاحة كل منْ يُحِيطُون بي من أي تهمةٍ قد تلصق بهم بسَبَبِ موتي، كنتُ غبيا مرتين:

مرَّةً لأنني التمسْتُ الحل لمشاكلي ومُعَانَاتي في عالمٍ يلغي كلَّ مَاضٍ في وضعٍ جديدٍ ليس بمقدرتي معرفة ما هو لكونه يَتَنَافَى مع كلِّ معرفةٍ إن لم يكن هو المعرفَةُ نفسُها لكنَّهَا لا تتحقق إلا بحتف الكائن لأنَّ حتفه هو وُجُودِها وَوُجُودِه هو حتفها. فعندما كنتُ ممدَّداً في الفراش أحتضرُ، وعندَمَا كانتِ النَّارُ تلتهم جثتي كانَ بابُ المعرفة قَدِ انْفَتَحَ أمامي على مِصْرَاعيه، وبعدد خطواتي نحو الموْت كُنْتُ أزداد علما، إلا أن نقلَ معرفتي إلى الآخَرِين تعذَّر علي لسَبَب بسيطٍ: فقد

كنتُ بصدد الخروج من المدَارِ البَشَرِيِّ. أما الآن وقد عُدْتُ، فإنني كلَّمَا استحضرتُ شيئا من تلك المعرفة لم يأتِ إلا بهيأةِ أعشاب بريةٍ، وأمواجٍ هوْجاءَ، وسُحُبٍ سوداءَ، وعواصف مزمجرةٍ...

ومرَّة أخْرَى، كنتُ غبيا، لأنني بكتابتي ما كتبتُه لم أكنْ أفعل – مثل ما أنَا فاعله الآن - سوى تلويثِ صفاء الموت بضجيج كلامي وإثقالِ كاهِلِي بحمْلِ عُدَّة سَفرٍ لا يستوجبُ أيَّ زادٍ عدا العراء أو الصَّمْت. لقَد كنتُ أحاول عبثا أن أتواصَلَ من منطقة اللاَّتَوَاصل. وهذا نص الخطابِ:

روضة الموتى في 1690/52/60

الآن وقد وجدتموني جثَّةً هامدة فإني أخبركم بأنني أنا الذي وضعت نهاية لوجودي وبمحض اختياري.ليس بيني وبين أي فرد من أفراد أسرتي أو أصدقائي ما أجبرني على محو نفسي. فقد نسجت حولي ليلي الخاص منذ لست أدري كم من وقت، لكن المؤكد هو أن هذا الليل قد تعاظم من حولي إلى أن صَيَّرَنِي أعمى بحيث لم أملك سوى تلبية ذلك النداء الذي ما انفك يتردَّدُ من بعيد ويناديني أنِ اخْلَعْ جُثَّتَكَ والْتَحِقْ بروضة الموتى. وفي هذا السبب وحده ما يكفي لتغفروا لي ما ألحقته بكم من حزن وغم...لاتحزنوا على فقداني. فأنا بموتي جعلت حدا لحزني على فقدانكم الأسبق. صدقوا أنني لم أركم طيلة العشرين يوما الأخيرة وإن كنت أقمت طيلتها بينكم.

التوقيع: جثة الْمَيِّتِ»

لم أفلح لحد الآن في فهم السَّبب في وجود ذلك الرَّابط الخفي الذي يشُدُّ هذا الخطاب إلى معدتي. فكلما قرأته تهيَّأتْ معِدَتِي للانقذاف أمامي وحاصرتني الأسئلَة إلى أن أتحول إلى علامةِ استفهامٍ كبْرَى وقد أخذتْ هيأة إنسَان. أَحَيّا كنتُ أَمْ ميتاً لَمَّا كُنْتُ أَكْتُبُ مَا كتبته؟ هَبْ؟ أنني مِتُّ وأنَّ خِطابي قد انتهى إلى من وُجِّهَ إليهم، فأيُّ وضعٍ يأخذه الآنَ؟ أكلامُ ميِّتٍ هُوَ أم كَلاَمُ حَيٍّ؟ إن كان كلامُ حيٍّ فصاحِبهُ الآن ميِّتٌ، وإن كانَ كلامُ ميِّتٍ فالميتُ لا يتكلَّمُ، لكنَّ كَلامَهُ هُنَا... ثمَّ الآن وقد صرتُ قارئ خطابَ موته، هل أنا الذي يَقْرَأُ هو أنا الذي يكتبُ؟ من رَدَمَ الهوة الفاصلة بينَ مَوْتِي وحياتي؟ كيف عبرتُ هذه الهوة؟ ماَ أغبَاني!، ثم ما أغبَانِي! وفي انتظار أن تُرْفَعَ عني هذه الغباوة ها أنذا أستهلكُ ما تَبَقَّى من حياتي وأنا لا أتوقَّفُ عن ترْدِيدِ الابتهالِ التالي بكبرياءٍ شديدٍ:

«لَقَدْ سَدَّدْتُ لِلْمَوْت لَكْمَاتٍ عَنِيفَة لَكِنَّ وَجْهَهُ كَانَ مِنَ الصَّلاَبَةِ بِحَيْثُ أَدْمَانِي وَهَشَّم عِظَامِي».


احتواءات وتنكرات

وَقَفَتْ ملفوفةً وسط جلبابٍ أزرقَ بوجه شاحب حزين وعينين غائرتين أحاطت بهما نُطَعُ سَوَادٍ أحالتهما إلى ليلين موحشين. وَقَفَتْ في وضعٍ مقابلٍ لنا (وكنا أكثر من خمسين، جالسين على طاولات كتلاميذ)، ثمَّ احتوتنا داخل مجالها البصري بنظرة منخطفة نشوانة ذاهلة أعدمت الزَّمنَ ونصبت الصمت سلطانا. انزلقنا إلى فضاء عينيها الواسعتين بسُرعةٍ أحدثتْ فينا دواراً شديداً.. تكلمتْ عيناها بهُدوء مرعب فقالتا: «أنا الرُّعب. قد لبِستُكم الآن حِدادا على من فقدتْه دون أن أعرفه. وبعد حينٍ سأكمِلُ بهجة هذا الفُقدان بسحقكم جميعا بأنيابي الحادة هذه!».

اتجهتْ نحو الباب. أحكمتْ إمساك قبضته. جرَّتْه إليها قليلا، ثم أغلقتْه بدفعة ارتجت لِدَوِيِّهَا الحيطانُ والْمَفَاصِلُ. لاستعادة وضعها السابق، المقابلِ لنا، قطعت المسافة الفاصلة بين البَاب والمكتب وهي تتهَادى كالرَّاقصة. أبدتْها مشيتها كالتي يطاردُها العفريتُ وهي تحاولُ التملُّص من وخزاتِه بإحداث التواءاتٍ جسدية ابتهاليةٍ. أثناء ذلك كان جسدُها ينسابُ خارج الجلباب في هدوءٍ، مفتول العضلات، قصيراً،

مكتنزا، كفرس دريرٍ. استعادتْ مكان وقوفها الأول، ثم امتطتْ صهوةَ كلام طَال وتدجَّج بالإشارات والابتساماتِ إلى أن أثار فينا الرُّعبَ ومحا جغرافية القاعة وفْقَ نظام صهَرَ لحمنا بخشب الطاولات ولبس علينا الموقف، فلم نَعُدْ نعرف أأستاذةٌ كانتْ هي أم تلميذةٌ، أهي التي كانت تتكلَّم أم نحن، أم أن كِلانا كان صامتا والكلامُ يتكلم من بعيد...

انتهى الكلامُ.

التحقتْ آذاننا بالعاصفة تنزف دما ودخانا، فتتشكَّل منه أشبَاحٌ أثيرية تتراقصُ في الهواء، ثم تنزل بهيئاتِ حسَانٍ جميلات سرَّحتْ كل واحدة منهن شعرَها القصيرِ بأناقة متناهية، وأتقنتْ إبراز حمرة شفتيها، ولفَّتْ قامتها الرَّشيقة وسط جاكيت جلدٍ أسود وسروال «دجين» أزرق... أجهدتُ عينيَّ في مداعبتهنَّ لكنهنَّ كنَّ يجبنني جميعا بإجابة واحدة: «لا تستعجلِ الأمورَ، فبعد قليلٍ سنلبسُ جلبابا أزرق...»

عُدْنَا إلى القاعةِ.

تربَّعَتْ كرسيا في وضعٍ مقابل لنا. انفجرتْ ضحكاً.. تسلَّلَتْ يداها داخل جيبين بالجلباب محاذيين لخصرِهَا، ثم رفعتاه قليلاً إلى أعلى، فأطلَّ من فتحتي الجلباب السفليين شيئان كالسَّاقين. كانا ملفوفين باحتشامٍ وسط سِروال من الصُّوف رمادي اللَّون كثيف النسيج، غيرَ أن ذلك لم يمنعهما من التصلُّب أثناء اختيالها في المشي فبدتا ساقين كسَاريتي رُخام ترسِلان بريقا يخطفُ البصرَ. استقرَّت يداها داخل

الجلباب تُعلنان الموتَ باحتكاكٍ دائري يأسرُ العيون وسَط شبَاكٍ من الخيوط. عمَّت القاعة حرارةٌ جحيميةٌ. تضبَّبَ الفضاء وتعذَّرت الرؤيةُ إلا من خِلال التَّرَاقص وبه. تتراقصُ أجسادنا والطَّاولات داخل الحمَّام الذي صارتْ إياه القاعةُ. أحسستُ برغبة في القي. حشوتُ فمي بالسَّبَّابَةِ والوُسْطى إلى أن انقذفتْ أمعائي نحوَ الخارجِ. أوقفتني برودة انسلَّتْ إلي من جسدِها المرتعش المقابلِ لي، وكان يرتعشُ، فألفيتُها ترتعش ضحكا ومن ورائها ذيلُها يعلن الفرحةَ يمينا ويساراً. كنتُ علَى وشك الاعتقاد أنها كانتْ كلبةُ لو لم يكُن جلبابُها في تلك اللحظة يتبرقع ببقع سائلٍ لزجٍ. انتهى الضحكُ وبدأ الكلامُ:

«أنا الرُّعْبُ لَبِسْتُكُمُ الآنَ حِدَاداً على من فقدته دون أن أعْرِفَه، وبعدَ حينٍ سأكْمِلُ بهجةَ هذا الفُقدان بسحقكُم جميعا بين أنيابي الحادَّة هذه!».

بِرَأْسِي صُدَاعٌ وَدُوَارٌ.

أَنْسَحِبُ مِنَ الْقَاعَـةِ.

*

*   *

بجانب إحْدَى محطَّات الأوتوبيس انتصبتْ متنكِّرَةً بهيأة جدَّتِي وقد اتكأتْ على جدار عمارة. تحت سماءٍ حريريةٍ صافيةٍ تدلَّتْ قدَماها الصغيرتان مغلفتين بنسيج من الصُّوف الأبيض السَّمِيك.

كان ذلك هو كلُّ ما تراءى لي قبلَ أن أرفع عينيَّ لأجِدَ جميعَ ذلك كان في وضع تدلٍّ، محكم الشَّدِّ إلى كُرةٍ يذكِّرُ اتِّسَاعُ عينيها وزرقتهما برأس ما يُسَمَّى الإنسان. ما إن وقعتْ عيناها عليَّ حتَّى احتوتني بذهولٍ فرحٍ نَشْوانٍ ونادتني وهي تشغر شفتيها لعبور ابتسامةٍ مريضةٍ. اتجهتُ نحوها، لكن ضحكتها أبدتْها كالمكشرة عن أنيابها تترقبُ فريستها. أخذتْ ركبتاي تصطكَّان فزعا ورغبة. تذكرتُ القاعة، والعاصفة، والحمَّام. واصلتُ التقدم نحوها، إلا أن كل ما حولي كان بعدد تقدمي في الخطوات يُمْسَخُ: لقد تحوَّلتْ هي والمحطة والعمارة إلى أشباح جامدة داخل صورةٍ فوتوغرافيةٍ، وخلالَ ذلك كان الفضاءُ يعبق بروائح ندٍّ وريحانٍ. انتابني شعورٌ بالإغماء، فأُغْمِيَ عليَّ. مغمى عليَّ كنتُ أتأملُ يديها الصغيرتين تندَسَّان في هدوءٍ داخلَ جيبي الجلباب وتنخرطان في حركةٍ ميتة. حرَّكتُ رأسي مرات عديدة وقفزْتُ بقوة ونططتُ أختبرُ وضعي: كنتُ مازلتُ ميتا وكانَ الثوبُ الأبيضُ ماانفَكَّ يلفُّني. ابتعدتُ عنهَا كيْ أحتويها داخلَ مجالي البصريِّ، لكن بقدرِ ما كنتُ أزدادُ بعدا عنهاَ كانتْ هيَ تزداد قربا مني... وكانَ ذلك يجعلُ جسدها وحشا يلتهمُ كلَّ ما حولهُ؛ غابتْ المحطة، والعمارة، والطريقُ، والسيَّارات... وملأَ جسدَها الفضاءَ. كان عَليَّ في تلك اللحظة أن أكفَّ

عن محاولتي تلك كيْ أتخلص من الصدْمَات الكهربائيَّة التي ولَّدها التقاءُ عيني بعينيها... لكنَّ قلبي كانَ يخفق بدقاتٍ مسْمُوعةٍ وعُروقي ترتعشُ، وأذناي وأنفي ينزفان دماً ودخاناً...

أخيرا وصلَ الأوتوبيسُ إلى المحطةِ. قِئْتُ عينيَّ وملأتُ جيوبي وحقيبتي بالندِّ والريحانِ، ثم امتطيتُ الحافلة. من داخل الحافلة - بقدر ما كنتُ أبتعدُ عنها - كان جسدها النحيفُ يتقلص داخل مجالي البصَرِي ويأخذُ درجاتٍ متفاوتة في الصِّغر إلى أن استقرَّتْ في شكل ذرَّةٍ...

في زخم اندفاع الحافلة بدا فضاءُ العربَة الضيق مكتظّاً بروائح العَرَقِ، والموتِ، ووسخِ الإبط، ونتانة الفخذين، والعظام المهشَّمَة، واللُّحُوم القذرة، والدِّماء المتخثرة، والجثث المتحلِّلَةِ، والديدان المتوحِّشَة... بدا ذلك كلُّه متنكرا وراء فسيفساء من المرَاهِمِ، وعُطُور التَّجْمِيل، وأصابع الحُمْرَةِ، والابتسَامات السَّخِية.. التبَسَ عليَّ الإدراك بالرؤية فلمْ أعد أعرِفُ ما إن كنتُ في تلك اللَّحظة داخل الحافلةِ أم خارجها، حيّاً أم ميتا. وحَالَ انشغالي بهذينِ السؤالين كانَ سائلٌ لزجٌ يتدفَّقُ داخل الحافلةِ، وكانَ الضَّحِك يقصف كالرَّعْدِ.

*

*   *

وصلتُ إلى غرفتي فكانَ الكفنُ، والندُّ، والزعفرانُ، والرَّيْحَانُ، والعصفُ، وماءُ الورد بصدد الانتهاء من الإعدَاد لطقسِ استقبالي اليومِيِّ في جو رتيبٍ... قلتُ: «هيا أخرج بحثاً عن نفسي عسَانِي أعثرُ عليَّ في هذه المرَّة»، ثمَّ اتجهتُ صوب مشهد طبيعي التحق حديثا بشجرةِ نسابتي. خُطْوَةٌ. خطوتان. ثلاثة... أخطو. يجب عليَّ أن أقبع في منتهى الحذرِ لِكيْ لا تتماسَّ قدمايَ فأتعثر وأسقط. إنْ يحدثْ ذلك أجِدْ صعوبةً كبرَى في استِعَادَةِ وضع المنتصبِ لثِقْل هذا السّكافاندر وانتفاخه حولَ جثتي، وسينفجرُ ما بداخلي طوفانا من القَلَقِ يُغرق هذا الحي وسكانه. نظرةٌ. اثنتان. ثلاثة... أنظرُ. يجبُ عليَّ أن أشحذ عيني بمنتهَى الدقة والإتقان لإزالة الحجب التي تلُفُّ هذا الكوكبَ التي نزلتُ به. إلا أنني بقدر ما كنتُ أحرصُ على ذلك لم أكنْ أجد نفسي إلا فارغا ولا يحيط بِي إلا الفراغُ. كنتُ ممتلئا بفرَاغِي وفارغا بامتلائي. فكَّرْتُ في شكلٍ أنفجر به، فوُضِعَ الدم بداخلي في حالة مدٍّ. سأحيل هذه الفجوةَ الفاصلةَ بين هذا الحيِّ والجبل المقابل له إلى مَسْبَحٍ و...، لكنَّ عيني احتوتا الـ«كَادِيمْ»، فتراءَى، من الموقع الذي كنتُ واقفا به، في حجم حشرةٍ صغيرةٍ. صغيرةٌ صغيرةٌ جدّاً كانت تلك الحشرَةُ النموذجية، وكانَ بوُسْعِي أن أحيلَهَا إلى مسحوقٍ - ولم يكن ذلك يكلِّفني سوى خطوتين: واحدةٌ فوق قنطرة وِسْلاَنَ وأخرى فوق معمل الإسمنت - لو لم أغرق في تأمُّل أجزاء جسدي بإدراكٍ دَيْنَصُورِيٍّ. نعم، كنتُ دينصورا، وكانت خطواتٌ قليلةٌ كافيةً لتحويل المدينة بمجملها إلى رميمٍ تحتَ قدمي.

لكنني تذكرتُها وهي واقفةٌ أمام محطة الأوتوبيس: لم ينقصني في تلكَ اللحظة سوى أذنين طويلتين لتأخذ غباوتي الهيأة المناسبة. فقد كانت عينها الواحِدَة باتِّسَاعها وسط الرَّمْش اللَّيلي ونصاعةِ زرقتها مُعَادلا للنظامِ الشَّمْسِيّ بأكملِه، أو كانتْ نظاما شمسيا من نوعٍ آخرَ. أمَّا أنا فلم أكُنْ كلبا كمَا اعتقدتُ خطأ ولا حتَّى حشَرَةً. كنتُ مجرد ذَرَّةٍ. ولكي أعبر من أقصى رمْشِ العين الواحدة إلى أقصاه الآخر كان يجبُ عليَّ أن أستغرقَ دورة زمنيةً كونية كاملةً! التفتُّ إلى سائرِ الكائناتِ المجهرية المتجمهرة تحتَ إبطي وفي معِدَتِي وشعر رأسي، فتساءلتُ عمَّا إذا كان مجرَّد عُبُورها إلى قدمي يتطلَّبُ منها امتطاء مرْكباتٍ فضائيَّةٍ وصواريخَ ما لم يستحلْ عليها إدراك توفُّرِي فعلا على قدمين فتتقلَّص مسافَة العُبُورِ في الصَّدْرِ والسُّرَّةِ...

*

*   *

أمسكتُ خطَّافا أقلب جسدَ عشيقةٍ لي وهي ملقاةٌ فوق مِقْلاَةٍ. وجدْتُهُ مازال نيئا فأيقنتُ أن وحدتي لازالتْ وحيدةً ما تزداد دهاليزُها إلا تشعُّبا واشباكاً سيَّمَا حينما أدركتُ، لأول مرَّةٍ، من خلال التهاب جَسَدِي أنني لستُ الآخر سوى هيكلٍ عظميٍّ أو جثَّة متفسخةٍ عفنة ملقاةٍ فوق مِقْلاَةٍ، والمقلاتين مجرد توابلَ داخل قدر محكم الإغلاق ينتفخُ فيكَلِّفُنَا، حال تطلعنا لإزاحة غطائه، صنعَ مركباتٍ فضائية

وصواريخَ تتحسَّسُ ما بجوانبه، ويتقلص فيصير حيّاً صغيرا يسْتَنْسِخُ بالتواءات أزقته الضيقة تشعباتِ وحدتي واشتباكاتِها. وحيداً وحيداً أتحرَّكُ داخل هذه الوحدة، محاطا بغرفتها الزُّجاجية الدافئةِ، واضعاً عيني في حالةِ تأهُّبٍ قصوى لالتهام كلِّ ما يعترضها. بَيْدَ أنني لا أجدُنِي باستمرار سوى شظيةٍ داخل تفسُّخَات العالم لحظة اصطدام الاحتواءات البَصَرِيَّةِ التي تعصرُنِي فأتحول إلى فيضٍ يُغْرِقُ هذا العالم أطفالا... «غريبٌ ذلك» كنت سأقولُ، فاندفع مني في اللحظة ذاتها جيشٌ من الأطفال وسطَ ضوضاء من البُكَاء والحبْوِ والرَّضَاعَةِ ينبهُنِي إلى رتابة الحدثِ وتكراره اليوميِّ في المقهَى وساحة المدرسةِ والحافلاتِ والسُّوق...

من عُمق ذهولي النَّشْوَانِ أخذت أتأمَّلُ باقات الشُّعُور المقصوصة علَى الطَّرِيقة الغربية، واللُّحُوم الرخوة الطرية المدجَّجَة بالحِلْيِ والحلَلِ، وحمرة الشفاه القانية كبقع الدم وسطَ الوُجوه الغارقة في مَرَاهِمِ التجميل، وفسيفساء الألبسةِ والألوانِ... إلاَّ أنه من وسط الصدْمَاتِ الكهربائيَّةِ، ومنْ وراء السَّرَاوِيلِ، والقمصانِ، والتَّنُّورَات، والدفاترِ، والحقائب، والعُطور، وحاملاتِ النُّهُود... من وراء ذلك كله كانَ الجلباب الأزرقُ ينساب نحو الخارج معلنا أنَّ ذلك لا يعدُو مجرد نسخةٍ مزَوَّرَةٍ للجمَاجِم المهشمة، والجثث المتعفنة، والسِّوَاك، والكُحْلِ، والندِّ، والريحان... وبقدر ما كان الجلبابُ يتراءى، والعطورُ تعبقُ كان المَوت يُغازلني ناصبا أمامي أضعاف مَا نُصِبَ أمامي

من الشِّبَاكِ في القاعة والسَّاحَة ومحطة الأوتوبيس ولحظة اندفاعِ جيش الأطفالِ منِّي...

حديثُ الجثَّـة

....

....

- تفضَّلْ. اِرْكبْ بجانبها. ليلة سعيدة. أمَّا أنا فسألتحقُ حالا بالبيت. نداءُ السَّماء يدعوني... قال ذلك، ثم ابتلعهُ الظَّلامُ وأصْواتُ الآذان التي كانت تُطبِقُ الآفاق.

- إلى أين؟ إلى أين؟

ما هذه الأصواتُ؟ بل أين أنا؟ أستيقظُ.أجدُني داخل سيارة أجرة برفقتي واحدة من سَيِّداتِ الليل اللواتي كن يُحِطْنَ بي في حانةِ الفندقِ. قلتُ وقد بدأتُ أتخلَّص مِنْ ثقل النَّوْمِ:

- إلى البساتين.

فوْرَ إنهائي هذه الكلمةِ انْطلقت سيارَةُ الأُجْرَةِ بأقصى سُرْعَتِهَا فيما أخذتْ سيدةُ الليل تَهْمِسُ في أذني سائلةً:

- أمتزوجٌ أنتَ أم أعزب؟ (...) أمع جيرانٍ تسكنُ أم وحدك؟ (...) أفي الصَّباح أعودُ أم حتَّى المساء؟...

- أرملٌ (...) وحْدِي (...) حتَّى المساء...

«بورِكْتِ من ليلةٍ مَلَكِيَّةٍ جُدْتِ في أقل من لمح البصر بما بخلتْ به أحلامُ العُمر قاطبة!». هذا ما كانَ يتردد في خاطري وأنا معانقٌ سيدة الليل بِيَدٍ ودَاسٌّ الأُخْرَى بين عموديها الرُّخاميين أبحثُ عن مدخلِ الضَّرِيحِ فيما كانتْ هي متهاوية تحتَ رغبتها مستسلمةً تتمسح بي كهِرَّةٍ وديعة... تذكَّرْتُ عشرات سيداتِ النهار اللَّوَاتي يغْتَصِبْنَنِي يوميا داخل الأوتوبيسات وسياراتِ الأجرة. هُنَّ أيضا تطيحُ بِهِنَّ الرَّغبةُ فيتهاوين كما تتحطَّمُ الصُّروح العظيمةُ ويتمسَّحْن بجسدي إلى أن يُوقِظنَ الشيطانَ بداخلي، لكنهن ما أَنْ ينزلن حتَّى يسْحَقْنَني بكبريائهن ونظراتهنَّ السَّاخرة ثُمَّ يحتجبن عَنِّي دَاخِلَ حُشُود الأجسَادِ والممرَّات... سيدةُ الليل هذه هِيَ بديل سيدات النهار قاطبة. إن هبة الساحرة وقد قام عن ضريحها طابورُ الرُّعَاةِ لأنقى وألذَّ مِمَّا تَسْتَنْقِيهِ وتَسْتَعْظِمُهُ نساء النهار قاطبةً...أعانقُهَا. تُعانقني. أُقَبِّلُها. تُقبِّلُني. أهتدي إلى مدخَل الضَّريح. إلى سِرِّ الأَسْرار. إلى مِفتاح اللغز. أخلعُ حِذائي وأتهيأُ للدُّخُول. تحاصرني عيونُ الراكبين. تقفُ السيدَة الجميلة وتنهَالُ عليَّ ضرباً وهي تصرُخُ بأعلى صوتها وتَهْتَزُّ... اشتباكٌ بحركاتٍ عنيفةٍ متوحِّشَةٍ: المرأةُ الجميلة تحاولُ إبعادِي وإجلاس الرَّجُل الزَّاهِد بجانبها، أنا أُحاولُ التخلص في

آن واحدٍ من قبضتي المرأةِ الجميلةِ والرجل الزاهد لأعودَ إلى مقعدي الأصْلِي؛ الرَّجلُ الزَّاهِدُ لاَوٍ بيدٍ علَى المرأةِ الجمِيلَةِ يحاول تهدئتها وبالأُخرى على ياقتي مانعاً إيايَ منْ الانْصِرَاف. اشتباكٌ. تَضَارُبٌ. صُرَاخٌ، وهَا هِي أجسادُنا تنقذف فوق رؤوس راكبي الصُّفُوف الأمامية. تَنْقَلِبُ المقاعدُ عليَّ. أصرخُ. أحسُّ بِخَشْخَشَةٍ في الأضْلُعِ.. هَلْ انكسرَتْ إحدى أضلُعِي أم ماذا؟ أَهُمُّ بالوُقوفِ، لكنني أسقط مُغشى عليَّ إثر خَشْخَشَةٍ أقوى.. يلويني الألم. يُدَحْرِجُنِي. مَا هذا؟ أين أنا الآن؟ لا حافلة، ولا زاهد، ولا حسناء، ولا سيَّارَة أُجرة، ولا هُمْ يحزنون. فما الضربتان إلا ضربتَاها هيَ، المَارِدَةُ، زوجتي. تتوالى الصرخات من غُرَف البيت كافة فأتبيَّنُ أنها صَرْخَاتُ سيِّدَةِ الليل. ينضافُ إلى صرخاتها صُراخُ طفليَّ. الماردةُ ركبها إبليسُها. الماردة توجعُ سيدة الليل ضرباً. أسْتَمْسِكُ. أقومُ. أجلسُ علَى أريكةٍ بِبَهْوِ المنزل. يكتشفني وَلَدَايَ فجأةً. يتجاريانِ نحوي وهما يصرخانِ مَرْعُوبَيْنِ: «بَابَا! بَابَا!» ويُشيران إلى المرأتينِ المقتتلتين. تجذب الماردةُ سيِّدةَ اللَّيْلِ من شعرها وتجُرُّها إلى البهو. تُمَدِّدُها على بطنِها. تجلِسُ فوق مُؤخرِتِها. تنهالُ، بصفحةِ اليد، على الظَّهْرِ بضرْبَاتٍ قوية. تمسِكُ عَصاً طويلةً صلبة، ثمَّ تنخرطُ في طَقْسٍ تعذيبي مُروعٍ. سيِّدةُ الليل تَتَرَنَّحُ تحت الضَّرباتِ ككلبةٍ مسعورةٍ... وهَا هِي تتخلصُ فجأة من سَوْطِ جلاَّدها. تقفُ أنيقةً رشيقةً. تتحرَّكُ في أرجاءِ الحَلَبَةِ بِخِفَّةٍ ماهرة. تقفُ قبالة الماردةِ البدينة اللاَّهِثَةِ ووجهُها يرشَحُ عرقا، ثم تَكْمِشُ شعرَهَا وتستأصِلُ

خصلات منه بسرعة البرق. تتراجع إلى الوراء. الماردةُ تزعق. ولداها يطيران فزعا وبكاء وهما يصرخان: «مَامَا! مَامَا!». ياله من ٱقتتالٍ ضارٍ لا رحمةَ فيه ولا شفقة! أمن أجلي هُو أم لشيءٍ آخر؟ ذلك ما لم أفلحْ حتى الآن في معرفته...

تهتزُّ جدرانُ البيت. أتخيَّلُ نساء الحيِّ قاطبةً قد سمعنَ الصُّرَاخ المرعب وأصوات النَّجدة فكسَّرْن الباب وتجَمْهَرْنَ داخل المنزل. نِسَاءٌ يَحْمِلنَ عِصِيّاً ونِسَاءٌ يَحْمِلْنَ مِكْنَسَاتٍ، نِسَاءٌ يَتَأَبَّطْنَ سُطُولاً وَنِسَاءٌ يَشْهَرْنَ مِدْيَاتٍ... ينخرط الجمعُ في قتالٍ أشد ضراوة وعنفا: عصيٌّ تُكَسِّرُ ظهُورا. سُطُولٌ تُهَشِّمُ رؤوسا. مِدْياتٌ تبعج بطونا. أجساد تجرُّ أجسادا من رُؤُوسِها وتلقي بها في بِرَكِ الدماَء. أجسادٌ تنزلقٌ فوق الدَّمِ المتخثر فتسقط جارَّةً معها أجسادا أخرَى إلى الهاوية. يَتكَوَّمُ الجمع فيصيرُ كتلَةَ لحمٍ هائلةٍ، أُخْطُبُوطاً عملاقا من الأيْدِي والأرْجُلِ والرُّؤُوس البشريةِ. وخِلاَلَ ذلك كله تتعالى أصْواتُ الصُّرَاخ والترنُّح والنَّجْدة والضحكِ والزغاريد والإنعاض وأنا جَالِسٌ على العرش تعصرني لذَّةٌ منتشية ذاهلةٌ. أغمضُ عيني. لو أنِّي أقومُ وبكلِّ ما أوتيتُ من قوةٍ أقذف هذين الطفلين باتجاهِ هذَا الأُخْطُبُوطِ مُقدِّماً إياهُمَا قُرْبَاناً لهذه اللَّيْلَةِ المرعبة الماجنةِ. تعصرني اللَّذَّةُ. بيني وبين الموْتِ قَيْدَ شَعْرَةٍ. أهُوَ موعدُهُ قد حانَ؟ لوْ أني أقوم وأبتلعُ صيدلية المنزل فأسقطُ جُثَّةً هَامِدَةً. لوْ أنَّ قبضة يدي تسَعُ هذا الكوكب الذي يُدعَى أرضا فأُحْكِمُ إطباقَهَا عليه، وأقذفهُ في اتجاه مجرَّاتٍ مجهولةٍ. لَوْ.. لَوْ..

لَوْ.. إلى أن صحوتُ فوجدْتُ أُمَّ وَلَدَيَّ جالسةً على حاشِيَةِ السَّرِيرِ تَتَرَنَّحُ قائلةً:

- قد غفرتُ لك في الدنيا والآخِرَة ما ألحقتَهُ بي ليلة البارحة (...) وعلى كُلٍّ، فما كنتُ لأضبطك لولا الصُّدْفة المؤلمةُ التي ساقتني إليك قبل الموعِدِ الَّذِي كنتُ حدَّدْتَه لعودتي إلى مكناس. فنهَار أمس ماتَ أبوكَ في حادثة سيرٍ مروعةٍ. لم نَرَ أي شيءٍ. لكنْ قيل لنا إن السيَّارةَ قدِ انقلبتْ به، وإنه وُجِد جُثَّةً هَامِدَةً على بُعْدِ أمتار من العَرَبة، وإنَّ شُرُوخاً في رأسه قد سرَّبَتْ مجموعَ دمائه إلى الَخارج...

طيلةَ كلامِها كانَ قلْبِي يخفق بدقَاتٍ مَسْمُوعَةٍ، والدُّنْيَا تسْوَدُّ في عيني، وشفتاي ترتجفان، وجُثَّةُ الضحية الرَّاقدة فوقَ دمائِها تتراقصُ أمامِي إلى أن وجدتُني طفلاً في الثَّالثة من عمره يُعَلِّقُ على مُحَدِّثَتِهِ سائلاً:

- مَامَا! فَهِمْتُ جيدا أن السَّيارة انقلبتْ ببابا وأنَّهُ قد مأَت، لكنْ لماذا تأخَّرَ أبِي في العودةِ إلى المنزِلِ؟ متى سيعودُ بَابَا؟ متى سيعودُ بابا؟

*

* *

حدثَ شيءٌ ما. أذكُرُ تفاصيله جيدا، لكنني لا أستطيع نقلهُ إليكُم لأنني الآن مَيِّتٌ. العربة مقلوبة وسط الطريق، وعلى بعد أمتار

استقرَّت الجثة التي انقذفتْ إلى الخارج لحظة الانقلاب المروع. الرِّجْلان مطويتان، واليَدَان مجموعتان، والوجهُ مُخْتَمٍ بالصدر. وبمحاذاة القفا امتدتْ ضاية شاسعة من الدماء الحمراء القانيةِ التي خرجتْ لِتَوِّهَا من الرأس. ألا ما أشبه المشهد بمشهد ذبْحِ خروفٍ أو عِجْلٍ!

قبل أن يُشاهِد الجثة من نافذة الحافلة كان رُكَّاب المقاعد الأمامية قد وقفوا بأعناقٍ مشرئبة ووجوه ممتعضةٍ ثم قالوا متحسرين: «آه مات! آه مات!». أمّا هو فما وقعتْ عيناه على الجثة حتى امتلأ فمه بلُعَاب مقرفٍ وأخذت أوصاله ترتعشُ (أحزنا أم خوفا؟). اللُّعَابُ مقرف. يزعجه. يبصق. لكنَّ فمه يَرْشَحُ بلعاب آخر. يتمنَّى لو اقتُلِع منه اللسان والحنجرة فَلا يعود يحس بلعابٍ ولا تقزز. وفي انتظار ذلك، هاهو يتساءلُ: «لماذا يرشحُ فمي الآن بكلِّ هذا اللعاب المقرفِ؟ ثم ما علاقة هذا الرُّوَالِ بالجثة؟». أتذكرُ عشرات الجثث التي شاهدتُها منذ الصغر. الجثث التي لفظها البحر بيضاءَ كالشحم أو الصابون بعدما أمْسَكَها في قعره أياما، والجثث التي مزَّقَتْهَا عجلاتُ قطارات وتركتْها أشلاء لحمٍ وعظمٍ، والجثث التي تهشَّمَتْ فور سقوطها أو ارتمائها من طوابق عليا... ومن وسَط عشرات الموتى أولئك هاهو الجوابُ ينبثق ساطعا متألقا: إنني أحسُّ الآن كأنَّ ما من قطرةِ لعابٍ يفرزها فمي إلاَّ وتمتزج بهذه الجثة السابحة في دمائِها. أحسُّ بأنني آكُلُ لحم الميت. نعمْ، إنِّي آكلُ لحم الميت! فما من مرَّة حضرتُ فيها موتاً

مروعا إلا واستحال عليّ الأكل على امتداد يومين أو أكثر طوالهما ما تكادُ لقمةُ طعام تجتاز حنجرتي حتى يحضرني مشهَدُ الجثة، فيفيض فَمِي بهذا اللعاب نفسهِ الذي يزعجني الآن، فأقوم إلى المرحاض لأقْذِفَ أمعائي فيهِ...

انطلقتِ الحافلة. توارت الجثة. ساد صمتٌ رهيبٌ. شغَّلَ السائق جهاز الراديو كاسيت فعاد صوت الشِّيخَاتِ. بحركةٍ نادمةٍ عجولةٍ أفرَغَ السائق بَطْنَ الجهَازِ وحَشَاهُ بشَرِيطٍ آخر في تجويد القرْآن. أما أنا فتذكرْتُ أنني سَأَمُوتُ. سأنتهي عَاجِلا أو آجلاً إلى جُثَّةٍ هَامِدَةٍ. أخذتُ أتسَاءَلُ: «مَتَى سَأَمُوتُ؟ أين؟ وكيفَ؟». تتوالى أمَامِي سِينَارْيُوهَاتُ موتي: «هَا أنذا شَيْخٌ مُلقى علَى الفِرَاشِ أَحْتَضِرُ، وحولي تحلَّق أبنائي وأحفَادي (...) لا، سَوْفَ تداهمُني عجلاتُ قطَارٍ أو شاحنَةٍ في وقْتٍ آتٍ لا ريب فيه، ما يفصلنِي عنه سِوَى الجهلِ بميعاده (...) لا، قَدْ أنتحرُ بأن أُلْقِي بنفسي من الطَّابَقِ العاشرِ كما فعل جَارِي البَدِينُ منذُ بضعة أيام (...) لا، سيُدَاهِمُ المدينةَ زلْزَالٌ مرْوعٌ فينتهي كلُّ شيءٍ في بِضْعِ لحظاتٍ: تَنْهَارُ جدران البيت فتُحيلُنِي إلى رميمٍ (...) لَكِنْ، مَنْ يَدْرِي؟ فقد تطبقُ عَلَيَّ الجدْرَانُ فَأَقْضِي بداخلها أيَّاماً مسجوناً مختنقا قبْلَ أن تزهق روحي (...) ومَا أدرانِي أن الأمرَ نفسَهُ سيحدث لي دَاخِلَ قبرٍ حقيقيٍّ بعد أن أكون قَدْ «مِتُّ» ميتةً طبيعية، فما يكَادُ قطيعُ الدَّافِنِينَ يَنْصَرِفُ حتَّى تنبعث فِيَّ الروحُ ثانية؟...»

ألا ما أغبى الأحياء! لماذا يُعجِّلون بدفن الأموات؟ أن يدفنوا فرداً معناه أنهم قد أيقنوا موتَه، لكن أيُّ يقينٍ يُطَمْئِنهم إلى أنه لن يَحْيَ بعْدَ دفنه؟ لماذا لا يتركونه إلى مرحلةِ بدايةِ التَّفَسُّخِ ليتحققوا آنذاك من أنَّه قد مَاتَ فعلا، فيجنبونه احتمالَ القَتْلِ اختناقاً داخل قبرٍ أو ثلاَّجَةٍ لحفظ جُثَتِ المَوْتَى؟

أنسَى الأسئلةَ التي ساقتْ إلى ذهني سيناريوهات موْتِي، وبدَلا من الاحتفاظِ بمشهدٍ بعينهِ يتجاذبُنِي إحساسانِ متعارضانِ: سرورٌ وارتياحٌ كبيران عندما يُخَيَّلُ إلي أنني سأموتُ بمنتهى السهولة، أي دون اجتياز آلامٍ جسدِيَّةٍ، إذْ هُنَا سيتمُّ كُلُّ شيء في لمح البصرِ أو أقل: يغْمِضُ المرء عينيه كمَا يغمِضُهما قُبَيْل النوم، ثم يمحَى...، وقلقٌ وفزعٌ كبيران عندما أتوهَّمُ أنني لن أموت إلا بعد اجتيازِ آلام مبرحةٍ، إذ هنا مهما تَبْدُ مدّةُ احتضار المرء قصيرة، فهو يقضي فيها مَا يُعادل أضعافا مُضَاعفة من سِنِي حياته في التألُّمِ والمعاناة... أيُّ سبيل إلى الموتِ المُرِيحِ؟ لَوْ أيقنتُ أنَّ موتي سيستنزفُنِي قبل محوي لداهمته قبلَ أن يُدَاهِمُنِي؛ لتناولتُ دَفْعَةً واحدةً كمية هائلة من عقاقيرَ ما تكادُ تبلغ الحنجرة حتَّى تُنِيمني وتُمِيتُني... يَتَبَدَّدُ الشعوران أمامَ الفكْرَةِ الآتية:

«سواءٌ أكان موتُك خفيفاً سَهْلاً أم بطيئا قاسياً فذلك لنْ يجديك في شيءٍ، لأنك في الحالتين معا ستموتُ. ومتى مِتَّ انعدم فيك

الإحسَاسُ بالرَّاحَةِ والفرحِ، والألمِ، والمعَانَاةِ. فما هذه الأحاسيسُ إلاَّ للأحياء...».

*

*　　*

دِيرٌ في القلبِ وهديرٌ في الرَّأس.

وفجأة قام رجلٌ من جانب امرأةٍ كان جمالُها قد أسر عيون الراكبين جميعا قُبيل إقلاع الحافلة. وقفَ ثُمَّ أخذ يتفرَّسُ في وجوه المسَافرينَ إلى أن استوقفهُ وجهُ شابٍّ جميلٍ يجلسُ في مقعدٍ خَلْفِيٍّ بجوار امرأةٍ عجوزٍ، فأمسَكهُ منْ يده وسَاقَهُ إلى المرأةِ الحسناء ثم قال: «منذ أن شَاهَدْتُ تلك الجثَّة وخَاطِرٌ يوبِّخُني ويُعَنِّفُنِي قائلا: «أمَا استَحْيَيْتَ؟ تجلسُ أمام هذه وأنتَ مَيِّتٌ؟!»، فاجلسْ أنتَ [أيها الفتى] أمام هذِه [الحسناء] ودَعْنِي [أنا] أجْلسُ بِجِوَارِ تِلْكَ [العجوز]».

أيُّ شيطانٍ رَكِبَ ذلك الرَّجُلَ؟! فقد لفظَ كلماته بلهجةٍ جادَّةٍ أنزلَتْهَا على الرَّاكِبين كصاعقةٍ، فلم يَجِدْ أَيُّ واحدٍ منهم مَا يقوله ولا مَا يفعله والمرأةُ الحسناءُ! أزوجته كانتْ أم ابنة له؟ أم مجرد غريبةٍ سَاقَتْهَا إليه صُدَفُ السَّفَرِ؟ لا أحد استطاعَ أن يَعْرِفَ ذلك حينئِذٍ ولاَ فِيمَا بَعْد. والشَّابُّ الوسيم! أيُّ شيطَانٍ رَكِبَهُ؟! فقد أشرقَ وجهُه ولمعت عيناه، فقال لِمُكْرِمِهِ: «شُكْراً»، ثم تهيأ للجلُوسِ بجوار المرأة وكأنه سينالُ جائزةً أو ينقضُّ على غنيمةٍ. أمَّا هي، فقد اْحمرَّ وجهُها واْصفرَّ.

ثم زاغتْ عيناها كأنَّهَا صُعِقَتْ، فاستيقظ مَارِدُهَا، فما كادَ الشابُّ الوسيم يضع مُؤَخِّرَتَهُ على المقعد حتَّى استدارتْ نحوه وأمسَكَتْهُ بكِلْتي يديها من ياقته، ثمَّ جذبتْهُ إليها بقوة ورمته بعنفٍ إلى أن اُصْطَدَمَ بِي وسقطَ على مَمْشَى الْحافلة...

انْسَلَّ الرَّجُل الزَّاهِد من مقعده الخلفي بسرعةٍ، ثم أوقفَ السَّاقطَ وَهَمَّ بإجلاسه ثانيةَ بجوار المرأة الجميلةِ، لكنها وقفتْ وانهالتْ علَى الاثنين ضَرْباً وهي تصرخ بأعلى صوتِهَا وتهتزُّ... اشتبكَ الثلاثةُ بحركاتٍ عنيفة متوحِّشَةٍ: الحسناء تحاولُ، في آنٍ واحد، إبعاد الشابِّ الوسيمِ وإحلالِ الرَّجُلِ الزَّاهدِ محلَّه. الشَّابُّ يحاول التخلُّصَ من قبضتي المرأة الجميلة والرّجل الزَّاهِدِ كَيْ يعودَ إلى مقعده الأصلي. الرجلُ الزاهد يلوي بيدٍ على المرأة الجميلةِ محاولاً تهدئتها وبالأُخْرَى على الشاب الجميل مانعاً إياه من الانْصِرَاف. اشتباكٌ. تضاربٌ. صراخٌ. وها هي أجسادُ الثَّلاثة تَنْقَذِفُ فوق رؤوس رُكَّاب المقاعد الأمامية. يحجب صُرَاخ الرُّكاب هدير المحرك وأصوات الشيخات. تدافعٌ من الخلف، وتنقلبُ المقاعدُ فوق رُكَّابها. أجساد فوقَ أجسادٍ. صرخاتٌ تِلْوَ صرخاتٍ. يرتطمُ جمعٌ من الراكبينَ بِدَرَّاءَةِ الحافلة ويقع فوقَ السَّائِق. ثمَّ صمتٌ رهيب. لقد زَاغَتِ العربةُ عن الطَّرِيق فسقطتْ في هاويةٍ.

انْتُشِلَ «حَيّاً» من وسط المقاعدِ. مَا مَعْنَى ذلك؟ أَهُوَ إِنْذَارٌ من موته أم جَوَابٌ - خانتْهُ الدِّقَّةُ - عن سيناريوهات مَوْتِهِ المرتقب؟

*

*　　*

هَدِيرٌ في القلْبِ وهديرٌ في الرَّأْسِ.

وفجأة وجدتُني أنظر في لذات الجسَدِ من منظور ميّتٍ. انتابني شعورٌ مزدوجٌ: رغبةٌ عارمةٌ في العربدة والتهتكِ، وزهدٌ تامٌّ في الحياة مرفوقٌ بشفقة على الكائنات جميعاً. إن هذه القُضْبَان والأنابيب المحشوة بها أجساد المخلوقَاتِ كافَّة لاَ صِلَة لها إطلاقا بما يُسْقَطُ عليهَا من شهواتٍ ورغباتٍ. فمَا النُّهُودُ إلا أطعمة للرُّضَّعِ، وما آلاتُ التناسُلِ سوَى أجهزةٍ لإفراغِ نفايات الجسدِ وحفظ استمرارِ النَّوْعِ من خلال توالدِهِ/تِكرارِهِ، ومَا الجسدُ الأكثرُ إثارةً للشَّهْوَةِ سِوى هيكلٍ عظميٍّ أُحْكِمَ تقنيعه... من الآن فصاعدا لن تغويني امرأةٌ. من الآن فصاعدا سَأَمُرُّ في الشَّارِعِ فأرى «الحِسَانَ» قد اغتسلنَ، وتعطَّرْن، واكتحَلْنَ، ولبِسْنَ أبْهَى الحِلْيِ والحلل، ثُمَّ عرضْنَ صُدُورهن، ورَفَعْنَ رُؤُوسَهُنَّ شامخاتٍ وهُنَّ يمشين متهادياتٍ مُتَمَايِلاَتٍ، فما تقعُ عينُ الرَّجُل على إحْدَاهُنَّ حتى يَسِيلَ لعابه... أمَّا أنا فلنْ أرَ فيها أكثرَ من محض مُسْتَوْدَعِ نفاياتٍ مُقْرِفَةٍ أو كيسٍ يُزْكِمُ بروائح دَوَاخِلِهِ... من الآن فصاعداً سأكتفي من الحياةِ بما أتَّقِي به ألمَ البطنِ، وأستر به عَرَاءَ الْعَوْرَةِ... بلْ لو استطعتُ لضَرَبْتُ في الأرض سيراً صارفاً ما تَبَقَّى من

عُمري فِي مَشقَّاتِ سفرٍ وَهْمِيٍّ إلى أن يحينَ موتِي فَلا أَشْعُر ببطء مجيئه...

هَدِيرٌ فِي القَلْبِ وهَدِيرٌ فِي الرَّأْسِ.

وفجأة عادتِ الجثة الرَّاقدةُ في بِرْكَة دمائها. تذكرتُ ما تردَّدَ على ألسنة الرَّاكبيَن: «آه مات!»، «آه مات!»، فأخذتُ أتساءلُ: لماذا لم يقولُوا بَدَلاً من ذلكَ: «إنَّه ميِّتٌ»، أو «إنه يمُوتُ»، أو «إنَّهُ بِصدَدِ الموت»؟ استحضرتُ وُجُوهَ الموتى الَّذِينَ عرفتُهُمْ واحداً واحداً فما وَجَدْتُ إلا القولة نفسها تتردَّدُ على لسانِ من تخلَّفَ وراءَ كلِّ ميت... إننا معشر الأحْيَاءِ ما أَنْ يعْبُر أحدُنا إلى الضِّفَّةِ الأخرى حتَّى نتنكر له ونَزُجّ به في الزَّمنِ الماضي ونُقصيه كليا من الحاضِرِ وكأنَّنَا نعمدُ بذلكَ إلى اتقاء شرِّه. فلماذا لا نُمَوْضِعُ أنفسنا بالطريقةِ ذاتها عندما نكونُ مُسافرين، مثلا، فنقولُ فور إقلاعِنَا: «لقد سافرتُ» بدلا من «أنا مُسَافرٌ؛ أنا بصَدَدِ السفر»؟ لمْ يجِدْ لهذا السُّؤَالِ جواباً، لكن طرْحَه أتاح له الوُقُوفَ على وَجْهٍ آخَرَ للموت:

- ليسَ الموتُ هُوَ أن يتوقَّفَ جَسَدُكَ عَنِ الاشْتِغَالِ ويَصِيَر جُثَّةً هَامِدَةً... أنْ تموتَ هُوَ أَنْ تتموقَعَ في جهة ما من الزَّمن الماضِي. هو أن تنتقلَ من الْمَا يَجْرِي أو الْمَا هُوَ كَائنٌ إلى المَا جَرَى أو المَا كانَ. هُو أن تَنْتَقِلَ منْ نُقْطَةٍ ما في شبكة عَلاَقاتِكَ بغيرك إلى نقطة أخرى. ومعنى ذلك أنَّكَ تَكُونُ دائِماً حيّاً وميتا في آنٍ واحدٍ: حيّاً حيثُمَا كُنْتَ، وميتا

حيثُمَا غبْتَ. وما أنتَ في العمق سوى هذا الحضُورِ-الْغِيابِ المتوالي. فأنتَ الآن، في هذه الحافلَةِ، حيٌّ. لَكِنَّ أهلَكَ، في البيضاء، الذين فارقتُهم منذ ساعاتٍ، هم بالنسبة إليك أمواتٌ كما أنك بالنسبة إليهم ميِّتٌ...

- لكن أين تضعُ ما تواضع بنو البَشَرِ على تسميته مَوْتاً؟

- إنَّ ما نسميهِ حياةً لا يعدو مجرد وهْمٍ سابقٍ للحياة. أما الحياةُ/الموتُ فلا علاقة لها إطلاقا بما نحنُ إياه الآن لأننا لن نكونَ فيها على ما نحنُ إياه الآن نظرا لكوْنِهَا تقعُ خارجنا، ولكونِنَا متى انتقلنا إليهَا ولَجْنَا منطقةً تقَعُ خارجنا. أن يحيى المرْءُ هو أن يَكُونَ داخلَ نفسِه، وأن يموتَ هُوَ أن يُغَادِرَهَا مُغَادِراً فيها عقْلَهُ وإِحْسَاسَهُ. بتعبيرٍ آخر: الحيُّ ميِّتٌ في حياته والميِّتُ حَيٌّ في مَوْتِهِ...

- كيف ذلك؟

- إنَّ ما نسمِيهِ حياةً لا يعدُو مُجَرَّدَ وَهْمٍ يحملهُ كلٌّ منا بطريقتِه الخاصَّة وينتهي بانتهائِه. فلنأخذْ، مثلاً، هذِه الجثة التي شاهدتها يومه (13/08/1993). فمن «وِجْهَةِ نَظَرِ» صاحبها لقد انتهت الحياة والمعرفةُ بكلِّ ما يمتُّ إليها بصلَةٍ، انتهت - كما انتهى هو - يومه وانزوتْ في ماضٍ أبديٍّ. وإذا افترضنا أنه سَيَسْتَمِرُّ في التَّفْكِيرِ والكلام، فإن ما من يومٍ أو حَدَثٍ أو ولادة أو موتٍ سَيأتي بعد اليوم (13/08/93) إلا وسيكون عَدَما وخَوَاءً بالنِّسْبَة إليه. ولو سألناه ما الحياة؟ لاختزلها في مَا عاشَهُ

منذ ولادتِه إلى وفاتهِ. بهذا المعْنَى فالحياة ليسَت إلا سلسلة دخولاتٍ إلى العدم أو فائضٌ يَزْدَادُ بتوالي النقط الزَّمَنِيَّة التي يمُوتُ فيهَا الأحيَاءُ...

*

*   *

هَدِيرٌ في القَلْبِ وَهَدِيرٌ فِي الرَّأْسِ.

وفجأة توقَّفت الحافلة في محطة الخميسات. تذكرتُ أَخِي حسن ففطنتُ إلى أنني لم أره منذ عامين. قلتُ: «فَلْنُحْيِ الميِّتَ البعيد بالحيِّ القريبِ. هَيَّا، إذن، إلى حسن الآخر، إلى فقيه الخميسات»، ودون أدنى تردد غادرتُ الحافلة.

ما كِدْتُ أجتازُ عتبة معبده حتى اقشعرَّ جلدي لوحشة ما ألفتُها في المكان من قبل. وفِيمَا وَرَاءَ رَوَائِحِ الصَّمْغِ، والوَرَقِ، والصُّوفِ، والجِلْدِ، والمسك، والزعفران، والند، وماء الورد.. انتَهتْ إلى حَاستي الأُخرى رائحةُ مَوْتٍ. قُلْتُ:

- مَنِ الفقيد؟

قالَ بصوت حزين وهو يدعوني إلى الخروج:

- تعال أُرِيكَ كيف تغتال الأمُّ أبناءها!

في الحانة طَلَبَ ستّيَن قدحا دفعة واحدة، ثم رَاحَ يستضيفُني للشَّرَابِ مَرَّةً تلو أخرى، وفي كل مرة يُتَمْتِمُ بِكَلِمَاتٍ غير مفهومةٍ، ثم يحتَمِي بصمتٍ رهيبٍ...

عِنْدَ مَتَمِّ القَدَحِ العشرين خرجَ مِنْ صَمْتِهِ وَقَالَ:

- أرأيتَ تلك العجوز التي تَقَرْفَصَتْ عَتَبَةَ منزلها؟

- ....

- إنها أمُّ عزيزنا ياء. لقد قَتَلَتْهُ.

- كيف؟! مات؟!

- نعمْ. مات. لقد انتحَرَ منذ بضعة أيام...

الْكَأْسُ تَدُورُ والرَّأْسُ يَدُورُ.

وَفَجْأةً وجدتُني أتسَاءَلُ: «كيف يمكن لأُمٍّ أن تغتال أبناءَها؟» صُورة ياء تتراقص أمامي. عينا جاكلين المطلَّقة الشقراء ذات الستة وثلاثين عاما وقعتا عليه فتزوَّجَها، لكنَّ عينيه دلَّتَاهُ على ابنتِهَا نَاتَالي سوداء الشَّعْر والعينين ذات الستة عشر عاماً، فعَشِقَها. أما عينا أُمِّه هو فقد ساقهما عشْقُ الابن إلى ابنةِ الحيِّ زينب... أهذا هو سبَبُ ذلك الحزن الغامِضِ الَّذِي كانَ، فيما وَرَاء العرْبَدَاتِ المنتشية، يخيم عليه كأفقٍ مُظْلمٍ ويملي عليه قراراتٍ «غريبة»؟...

صورةُ ياء تتراقص أمامي. ها هُو يزُورُني رفقةَ ناتالي. يشربُ. يستَزِيدُ. يعانقُ صغيرته. يبتهِلُ إليها بقبلاتٍ خاشِعاتٍ مُتَوَسِّلاتٍ. أتُراه يستعيد بها زينب؟ يتعانقُ الجَسَدان. يلتصقان. يتمدَّدان. يتدحْرَجَان. يتنَاجَيَان. وبيَن الفِينَةِ والأُخْرَى يتهامسَانِ كلمةَ «[المرأة] «الأخرى»، جاكلين...

كان ذلك قبل أن يُرسِّخَ قدميه جيدا في باريس مؤسِّساً لنفسِهِ نسَابَة رمزية صلبةً وضع بها «زوجته/حماته» أمام الأمر الواقع...

صورته تتراقصُ أَمَامِي. ها أنا أراه للمرَّةِ الأخيرة:

«لقد حصلتُ على جميع الوثائق، وعما قريب سأتجَنَّسُ (...) زوجتي الآن هي ناتالي وليست جاكلين. لقد صحبتُهَا معي إلى المغرب وهِيَ حُبْلَى. هُنَاكَ، أنجبتْ لي مولودا أسميتُهُ يوسفَ (...) أقلعتُ عن شُرْبِ الخَمْرِ. أنَا الآن أُصَلِّي (...) لكن [هاهو الحزن الغامض نفسه يخيم عليه كأفق مظلمٍ موحِشٍ ويملي عليه قرارا «غريبا»] ما أتجنسُ حتَّى أهجر الإثنتين وأرحل نهائيا عن باريس. سآخذُ مَعِي يُوسف وأُهَاجر إلى أمستردام. هُنَاكَ، سأَسْتَقِرُّ نهائيا. أَلاَ ما أوسَع أَرْض الله!».

نعم مَا أوسع أرْضِ الله وأرْحبها. لقدْ تنكَّرتْ أمستردام بهيأة مقبرة في الخميسات تُدْعَى «سيدي غريب» وآوت يَاءً بشكلٍ نهائيٍّ في شُقَّةٍ أضيق مِنْ أن تَسَعَ فردا واحدا فأحرى اثنين، ولذلك بَقِيَ يُوسُفُ في باريس يُعَلِّقُ على حديث أُمِّهِ سائلا:

- مَامَا! قَدْ فهمتُ جيدا أن بَابَا مَاتَ، وأنه وُضِعَ داخل نعشٍ ثُمَّ نُقِلَ على مَتْنِ طائرةٍ إلى المغرب، لكنْ لماذا تأخَّرَ بَابَا في العَوْدَةِ إلى المنزل؟ متى سيعودُ بَابَا؟ متى سيعُود بَابَا؟

الكَأْسُ تَدُورُ والرَّأْسُ يَدُورُ.

وفجأة وجدتُني أسأل نَدِيمي:

- كيف انتحرَ؟

- لستُ أدري. لكن ما فائدةُ ذلك؟

- أقصد فقط هلْ تألَّمَ كثيرا قبل الموت أم لا؟ أَتَمَنَّى...

قاطعني:

- لستُ أرى أيّ جَدْوَى في مثل هذا الانشغال. أما علمتَ أنَّ ما تُسَمِّيهِ بـ «الاحتضار المريح» أو «الاحتضار المؤلم» هو مجرد وصف تسقطه أنت الحيُّ على الميت؟ أما صاحبنا، فسواءٌ كان احتضاره «سَهْلاً» أو «قَاسِياً»، فذلك لم يُغَيِّرْ في الأمر شيئا لأنه في الحالتين معا قد انمحَى! أنسيتَ أن المرء ما يُولدُ حتى يُهَرْوِلُ الموت إليه مُطالبا فيه بنصيب، وأنَّ حياة الإنسان بكاملها لا تعدو مجرَّد موعد مع الموت، أي مجرد احتضارٍ أكبر يعقبه ذلك الاحتضار الأصغر الذي يُدَشِّنُ الدخول إلى الموت؟

هَدِيرٌ في القَلْبِ وَهَدِيرٌ فِي الرَّأْسِ.

نعم، ما الحياة سوى احتضارٍ يمتدُّ من الولادة حتَّى الموت. وما الموت سوى محطَّةٍ بين حياتين: حياةُ ما قبلَ الولادةِ، وحياةُ ما بعد الموت. وبما أنَّ الموْتَ يقع داخل الحياة فالحياةُ تقع خارجَ نفسِها. أين أنا الآن؟ بل أحيٌّ أنا أم ميِّتٌ؟ أنا حيٌّ. لا، أنا ميِّتٌ. أفتحُ عيني. الظلام مطبق. ما هذا الكتان الذي يلفني؟ هل انصرفَ قطيع الدافنينَ فعادت إليَّ الرُّوح؟ أتحرك يمينا. أصطدمُ بجدارٍ. أتحرك يسارا. أصطدمُ بجدارٍ. فوقي جدارٌ وتحتي جدار. أُغَالِبُ الاختناق. أتخبَّط. أصرخ كالمسعور. أَثِبُ بكل ما أوتيتُ من قوة. لا. أنا حيٌّ. هذه غرفة، وهذا مصباحٌ. هذا فراشٌ، وهذا غطاءٌ. أرتدي الملابسَ بسرعةٍ. أغادرُ المنزلَ. أستقلُّ سيارة أجرة.

- إلى أيْنَ؟

- إلى أقرب حانة.

امْتَرَقْتُ وسط أجساد السُّكارى. وبإحدى زوايا المشرب وجدت لست أدري أيهما: حسن أخي أم حسن الخميسات متنكِّرا بهيأة حَسَن الآخر، شَيْخِ مكناس. وفيما وراء قرقعات الكُؤوس وقهقهات السُّكَارى وأُلْفَةِ المكان انْتَهَتْ إليَّ رائحةٌ موحشةٌ. أيقنتُ أنَّ أَحَداً قد مات، فقلتُ:

- مَنِ الفَقِيدُ؟

فرَك يديه، ثم قال:

- مساء أمس، تلقَّيْتُ هاتفا تقول صاحبته إن أرْضَها قد تصدَّعَت وانشقت وإنَّ محنة البحث عن الارتواء قد دلَّتْها عليَّ، فما أبديتُ استعدادي حتى انشقَّتْ الجدران عن سيِّدةٍ قالت إنها نزلتْ من السَّمَاء (...). تسألُني عن الفقدان؟ قد أنبأني القلبُ بوَشْكِ وقوعه، وإني منذ وطأت قدماي الحانَةَ وأنا أتساءل: من الفقيد؟

صَفَّ الخمَّارُ أمامنا عشرين قدحا وأربع زجاجات كبرى. تتعالى صيحات السُّكارى وقهقهاتهم. أتكلم، لكنَّ الضجيج المطبق على المكان يبتلع صوتي. أُجْهِدُ نفسي مع ذلك في إيصال شيء ما. بلسانٍ تظافرتْ على لَيِّهِ الكُؤُوس أحكي عن الجثَّة، وبِرْكَة الدم، والأم التي تغتال أبناءها... قاطعني الشيخُ ضاحكا، ثمَّ أخرجَ سيجارةً وقالَ:

- أأحياء نحن أم أموات؟

الكأسُ تدُورُ والرَّأْسُ يَدُورُ.

وفجأةً داهمَ الحانة رجلٌ ضخم الجثَّة)سيقال عنه إنَّه هرب من المارستان(ليُبَدِّدَ صخب الحانة بصخب أكبر. قال بصوتٍ هَزَّ الجُدران:

- كَفَى! كَفَى! فَأَنَا الْمَوْتُ!

سادَ الحانَة صمتٌ رهيبُ أبداها كطبقة متَكَلِّسَةٍ في أزمنة سحيقة. لكنَّ الغريب سرعان ما بدَّدَ ذلك الصَّمت مطلقا عِنَان حبالِ

حُنْجُرته في دوِيّ أغاني المعمور. كان ينتقلُ بمنتهى السُّهُولة من الهند إلى إنجلترا، ومن أدغال إفريقيا إلى متاهات أمريكا... وكانت الحانة تضُجُّ ضجَّةً عظيمة إثْر كل مقطع صمتٍ يتخلَّلُ أغنيتين، فتعلُو التصفيقاتُ والآهاتُ وصرْخات السُّكْرِ والعربدة...وفيما كان الجمعُ يستزيدُ الغريبَ أغانيه أخرجَ هو شفرة حِلاقة، وصلَّبَ يده، ثم تهيأ لقطع شبكة عُرُوقها وهو يقولُ باللهجة نفسِها التي دَاهَم بها الحانة:

- كَفَى! كَفَى! فأنا الموتُ! أنا ميِّتٌ! أنَا مَيِّتٌ! ثوانٍ وأغرِقُكُم في بحر دمائي!

فيما كان الرَّجُل البدينُ يستَجْدِي مُهَدِّداً أخذتُ أستكشِفُ جسدَه من جديد، لكن باعتباره ضحيةً. بدا كعِجْلٍ على أبواب المجزرة. تذكَّرْتُ الجثَّةَ الرَّاقدة فوق دمائِها، وجثَّةَ جَارِي البَدِينِ التي تهشَّمتْ فورَ ارتمائها من الطابَقِ العاشِرِ. أغمضتُ عيني. وها هو صَوْتُ النعي يخبرنا بموتِ قُطْبِ مكناس في حادثةِ سَيرٍ مُروعَةٍ...

الكأْسُ تَدُورُ والـرَّأْسُ يَدُورُ.

لَفَظَتْنَا الحانَةُ. قال الشيخ:

- هيا ننام!

- إن كلَّ ما شربتُهُ حتى الآن لم يُزِل عني هذا اللعابَ المقرِفَ الذي مَا انفكَّ فَمِي يرشَحُ بِهِ منذ شاهدتُ الجثَّةَ والدِّمَاء.

- أيُّ جُثَّةٍ؟!

أدركْتُ أنَّهُ لم يسمع شيئاً مما كنتُ حَكَيْتُهُ له في الحانة.عُدْتُ أقُصُّ عليه المشهدَ بكُلِّ تفاصيله. ساقنا الحكْيُ إلى حانةِ فندقٍ أرحب. بلِسَانٍ لوَتْهُ جيُوش الأقداحِ والزُّجاجات التي كان يسُوقها إلينا الخمارُ صفّاً صفّاً واصلتُ حديثَ الجثة، والثلاثة الّذين ركِبَتهم شياطينُهُمْ، وسقوط الحافلة في هاويةٍ، واغتيال الأُمِّ أبناءها... كان الشيخ يُصْغِي بشغفٍ وانتباهٍ شديدين دون أن يقولَ ولوْ كلِمَةٍ واحدةٍ، فما كان يُعَلِّقُ على حديثي سوى الصمتِ الرَّهِيبِ وقرقعات الكُؤُوسِ والزُّجَاجَاتِ...

*

* *

الكَأْسُ تَدُورُ والرَّأْسُ يَدُورُ.

وفجأةً بدَّدَ صمت القاعة صُراخُ أحد السُّكارى وترنُّحُه. كان يدفن وجهَهُ بين صفحتي يديه، ويخبِطُ الأرضَ بقدميهِ، ويتوجَّعُ مُتَأَوِّهاً وعيناه تفيضان دمعاً. هممتُ بفعل شيءٍ ما، لكنَّ الشيخَ جذبني قائلا:

- دَعْهُ وشَأْنُهُ، فلستَ بقادرٍ على تهدئته. إنَّه يتألم الآن من مرضٍ لا يشفيهِ إلا النسيانُ. لكن ولا عليك. سوف يَنْسَى. سوْفَ يَنْسَى. إنَّه واحدٌ من مُرِيدِي القطب الَّذين أوجَعَتْهُمْ طعنة فقدانِهِ...

أحاطَ شَخْصَان بالباكي، وهَمَسَا في أذنيه محاولَيْنِ تَسْكِينَ رَوْعِهِ، لكنَّه صَدَّهُمَا بعنفٍ وهو يَصرُخُ مترنحا:

- لا وَعْظَ ولا إرْشَادَ! لوْ هوَتْ مكناسَةُ بكامِلِهَا تحتَ زلزالٍ مروعٍ وماتَ أهلُها قاطبةً وبقي القطبُ لأغناني بَقَاءُ القُطْبِ وحده عن الناس جميعا! (...) يا لَيْتَ الموتَ كان قدْ حَلَّ بي، وحَلَّ بِأَبِي، وَأُمِّي، وَإِخْوَانِي، وَأَبْنَائِي...

قاطعه الشيخُ:

- اسمعْ! أتظن أنّي مِنَ السذاجَةِ بحيثُ أنْسَاقُ ورَاءَ وَهْمِ بُكَائك على القُطب أو غيره؟ إنّي ما أراكَ باكياً الآن إلاَّ على نفْسِكَ، على موتك، على حَتْمِيَة حتفك الذي ليْس موت القطب الآن إلا مجرَّد تذكير به. أمَّا القطبُ فقد مُحِيَ. لقد انتقل إلى منطقةِ البياضِ حيث لا بكَاءَ، ولا ضَحِكَ، ولاَ سَمعَ، ولاَ بَصَرَ!...القطبُ؟ آهٍ، ثُمَّ آهٍ! إن قلبي وأحشَائِي ليتمزقانِ الآن أشْلاَءً أَشْلاَءً على فُقْدَانِه، لكني لن أذرِفَ ولو دمعةً واحدةً. فقد علَّمَنِي هذا الوهْمُ - الَّذِي تَدْعُونَهُ حياةً - كيف أُمْسِكُ دُمُوعِي...

قال ذلك بهدوءٍ قاسٍ ثم أخرج غليونا وأخذَ يرتشفُهُ وهو يتأمَّلُ سُحُبَ الدُّخَانِ اللَّوْلَبِيَّةِ البطيئة قبل أن يضيف بتَحَدٍّ ساخر:

- حَسَناً. أنتَ لا تريد الإمْسَاك عن البُكَاء. إذن وَاصِلْ بُكَاءَكَ!. اِبْكِ، ثم ابْكِ، وإياك والكف عنِ البُكَاء! وإذا كانَ تَرَنُّحُكَ هذا على القُطْبِ فِعْلاً فإياك ألاَّ تلقاني منذُ اليومِ غير بَاكٍ كَمَا تَتَرَنَّحُ الآن!...

*

* *

الكَأْسُ تَدُورُ وَالرَّأْسُ يَدُورُ.

أيُّ مَارِدٍ ساق إلينا كُلَّ تلك الأجساد الغاوِيَةِ التي خالَطَتْنَا لَحْظَتَئِذٍ؟ أإشفاقاً على دُموعِ المريد المِدْرَارَةِ جِئْنَ أم تأثرا بِبَلاَغَةِ الشَّيْخِ القاسية؟ لم نفطن إلاَّ وقد أحاطتْ بنا جماعةُ سيداتٍ ذوات لحومٍ رخوةٍ طريةٍ، وأجسادٍ كاسيةٍ عاريةٍ مُدَجَّجَةٍ بالحِلْيِ والجواهِرِ، ووجوهٍ رنَّحَتْ جمالها الأصبَاغُ والمرَاهِمُ... أحَطْنَ بنا ثم دَعَوْنَنَا إلى أرائِكَ مُتقابلاتٍ حيثُ اتَّكأنا والخمارُ يَسُوقُ إلينا الأقدَاحَ تلو الأقْدَاحِ والزُّجَاجَاتِ تلو الزُّجاجات إلى أن كَانَ مَا كَانَ:

أمَّا المريدُ فقَدْ ساقتْهُ محنة الفُقْدَان إلى عَرْبَدَةِ النِّسْيَانِ حيثُ استسلَمَ كُلِّيّاً لـ «مُغْتَصِباتِه» وقعَدَ في محرَاب اللَّذَّةِ يترنَّحُ انتشاءً: لما يَئِسَتِ النِّساءُ من مُوَاساتِهِ انْقضَضْنَ عليه انقضاضة لم تنفعْ معها أيُّ مقاومةٍ؛ اشتَبَكَ معهُنَّ باليدَيْنِ: اشتباكٌ. تدافعٌ. سقوطُ أجسَادٍ. وُقُوفُ أُخْرَى. تركُّلٌ وتخُّبطٌ يُذكِّر باختصام الثلاثةِ الذين ركِبَتهُمْ شياطينُهم في الحافلة. أَلاَ ما أشْبَهَ المشْهَدَ بحفل اغتصَابٍ! رَجُلٌ يُجْهِدُ

نفسَه في محاولة الإطاحةِ بجيشٍ من النساء أو حشْدُ سَيداتٍ يجاهِدْنَ في سبيلِ رَجُلٍ واحد!... انتهى المشهدُ. استسلمَ المريدُ. سرواله صار شبه سروالٍ أو أقَل، يكَادُ يسترُهُ. تَنُّورَتَا سيِّدَتَيْنِ تمزَّقَتَا إلى أن كشفتا سِرَّ أسْرَارَهُمَا. أقمصةُ ثلاث سيداتٍ وحاملاتُ نُهُودِهِنَّ تمزَّقْنَ عن آخِرِهِنَّ فجلسنَ يلهثن بأجسَادٍ نصف عاريَةٍ...

أما الشَّيْخُ فقد حُجِبَ عني صوتُه. كنتُ كلما نقلْتُ بَصَرِي إلى أَرِيكَتِهِ ما أرَى إلا وجهاً جَلَّلَتْهُ هالة سحب الدُّخَانِ المتصَاعِدَةِ من غَلْيُونِهِ وسجائر النِّسَاءِ، وشفتين تتحرَّكَانِ مستعينتينِ بحركات اليدينِ، والسيِّدَاتِ منْ حولِهِ صَامِتَاتٍ ذاهلاَتٍ يتلقَّيْنَ وحياً لم أتبيَّنْ منهُ سوى كلماتٍ ثلاثٍ: الهاتف، والمرأة، والسماء...

أما أنا فقد عَاوَدَنِي الهدِيرَانِ: هدِيرٌ القَلْبِ وَهَدِيرُ الرَّأْسِ. قُلْتُ:

«اِسْمَعْ يا رأسِي. إذا كانت الحياةُ، كما تقول لا تعدُو مُجَرَّدَ جِسْرٍ وَهْمِيٍّ يتوسَّطُ موتين عظيمينِ: العَدَم الذي كُنْتَ إياه قبلَ أن تُولَدَ والموت الذي سَتَكُونُهُ بعد أن تُمْحَى، فاختَلِقْ لنفسِكَ موتاً آخرَ اقْتَنْص بهِ هذِهِ الليلةَ المُبَارَكَةَ وجَلِّلْهَا بالتَّهَتُّكِ والمُجُونِ...»

تذكَّرتُ أنني سأموتُ، وأنِّي كنتُ زَهِدْتُ وأشفقتُ على الكائنات جميعاً، فقلتُ بنشوةٍ متحسِّرَةٍ: «ما أَحْوَجَنِي إلى الشَّفقة، ثم ما أحوجَنِي إلى الشَّفَقَة!». وفي ما يُشْبِه الحلم رأيتُ أنَّنِي سأَسُوق سيِّدَةً أو سيِّدَتَيْنِ من سيِّدات اللَّيْل - اللواتي كنَّ يُحِطْنَ بي - إلى المنزل حيث

سأجِدُ زوجتي عَادتْ من السَّفَرِ، بدونِ سَابِقِ إِعْلاَنٍ، وستدور حربٌ ضاريةٌ تنتهي بإغراق جُثَّةٍ أو اثنتين في بحرٍ من الدِّمَاء... كبَتُّ المشهدَ بسُرعةٍ نادمةٍ عَجُولَةٍ، إلا أن السَّاق كانتْ قد احْتَكَّتْ بالسَّاق وإلى تخوم اللذة كانَ المساق: فعنْ يميني كانَ وجهٌ عيناه بحرَانِ يَهْدِرَانِ، وعن شمالي كان وجهٌ عيناهُ سماءان صافيتان، ومنْ حلْكة تلك الليلة الماجنةِ الميّتَةِ كانت طرَاوَةُ اللَّحْمِ ودوَّامةُ الأجسَاد تُرَدِّدُ هدير البحْر، وحنين الرِّيَاح، وقرْعَ الطُّبُولِ، ونداء البدايات... رَفَعْتُ يداً وعانقتُ سيِّدَةَ اليمين. رفعتُ الأخْرَى وعانقْتُ سيِّدَةَ الشِّمَال...

الرَّأْسُ يَدُورُ وَالْحَانَةُ تَدُورُ

وفَجْأَةً سَمِعْتُ صوتا يقولُ:

- تفضَّلْ. اِرْكَبْ بجانبها. ليلة سعيدة. أمَّا أنا فسألتَحِقُ حالاً بالبيْتِ. نِدَاءُ السَّمَاءِ يَدْعُونِي...

قال ذلك ثم ابتلعهُ الظلام وأصوات الآذان التي كانت تطبق الآفاق...

- إلى أين؟ إلى أين؟

ما هذه الأصوات؟ بَلْ أيْنَ أنا؟ أستيقظُ. أَجِدُني دَاخل سيارةِ أُجْرَةٍ مَرْفُوقاً بواحدةٍ من سيِّدات اللَّيْلِ اللَّوَاتي كُنَّ يُحِطْن بي في حانة الفُنْدُقِ. قُلْتُ وقد بدَأْتُ أتخلَّصُ من ثِقْلِ النَّوْمِ:

- إلى البساتين.

....

....

نــداءُ المــوت

إلى بقية روح الطفل الزبير، المقيمة بداخلي، الذي تنكر له الموت بهيأة أبٍ ثم مَازَحَهُ.. وببراءة الأطفال لم يجد الصغيرُ بُدّاً من استدعاء المزاح الأكبر: ثَبَّتَ حبلا على السقف، ولفهُ حَول العنق، ثم قفز في الخواء لينصرف إلى حيثُ لا أبَ ولا أمَّ، لا مزاحَ ولا جدَّ، لا خواءَ ولا امتلاءَ...

قلتُ: أنت تعلم أنني منذ جئتُ إلى هذه الحياة وأنتَ بداخلي مقيمٌ، دون استئذانٍ ولا سابق إعلام. تُلازمني كظلّي، متربّصٌ بِي للانقضاض عليَّ في أي لحظةٍ. ولأجل ذلك فأنت كامل الاستعداد، لا تنام ليلاً ولا نهارا. كأنَّك جندي في حالة استنفارٍ قصوى. غير أنَّك، مع ذلك كلّه، ما أريتني وجهَك يوماً ولا مكانَك فكيف أنت؟ وفي أيِّ إقليمٍ مني تقيم؟

قالَ: أنا صوت سؤالك هذا. أقيم داخلك وخارجك في آنٍ. متى تحرَّكَ فيك صوت كهذا، فاعلم أن ما ذاك السؤال إلا سؤالي، ومتى رأيت جثَّة هامدةً أو نعشا محمولا إلى مقبرةٍ فاعلم أنَّ ما تلك الجثة أو النعش إلا جُثَّتي وهيأتي.

قلـتُ: لكن، هلاَّ أريتني وجهَك؟

قـال: وجهي وجهُك ووجهك وجْهِي. إن شئت رؤيتي فابصرْ عينيكَ وشفتيك، وخدَّيك، ووجهك، ورجليك.. وآنئذٍ اعلمْ أن تلك هي أطرافي وحُدودي.. تلك هي هيأتي وشكلي.

قلـتُ: لكنَّني حيٌّ وما أنا بميتٍ. ثم إذا كان الأمر على ما تقولُ فمعناه أنني ما أحاورُ الآن إلا نفسي، أنَّني قد شطرتُني إلى سائلٍ ومسؤولٍ. فهَلْ يُعقل أن يحاوِرَ المرءُ نفسَه أو يستَعْلِمَهَا عن أمر يجهله/تجهله؟ نعم، قد يفعلُ ذلك في لحظات تضارب الآراء والخواطر. لكنَّني الآن أمامَك. أمَامك أنتَ أنتَ، أيها الموت الذي ستمْحُوني وتحرمني مما أنا إياه الآن. فهل يُعْقَلُ أن أمَّحِي ثمَّ أسأل نفسي عن مصدر محوي وسببه؟ ثم إنَّكَ لك صِلَة بالكائنات جميعا، وما لِكُلِّ الكائنات صلة بي. فما أنا إلاَّ واحد من هذه المخلوقات الحيَّة التي يعُجُّ بها هذا الوجود..

قـال: وما دليلُك؟

قلـتُ: كوني أتكلَّمُ وأتحرَّك، وأمشي، وأكتبُ، وأسألك الآن...

قـال: ذلك كله وهْمٌ. فما أنت إلا صُورَتِي وصَوْتِي. ففي يومٍ ما، في ساعةٍ ما، في لحظةٍ ما، سأمحوكَ من الوُجود، سأحرمك مما أنت إياه الآن كي أُثْبِتَ من خلالك، وبالملموسِ، يقيَن وجودي للآخرين؛ فلو

لم أكن أمحو من يحيطون بكَ لما علِمْتَ بي، ولما فكرْتَ في مقابلتي. أَوَ مَا زلتَ مُصِرّاً على رؤيتي؟

قلتُ: أمَّا كَوْنُكَ صورتي وصوتي، فذلك ما أَشْكَلَ عليَّ فهمُه؛ أن تكُون ذلك، معناه أنَّني الآن معدومٌ، والحال أنني حَيٌّ موجُودٌ.. وأمَّا كونك تبرهن على حقيقة وجودك منْ خلال حِرْمان الأحياء من الحياة، فذاك ما لا أرى له أي معنى: فإذا كانَ عَمَلُ المحو يؤكد فعلا حقيقة وجُودك، فإنَّ هذا الإثباتَ لا يَصِلُ إلا إلى الأحيَاء؛ إلى من يتَخَلَّفُونَ وراء كل ميت. أمَّا الأموات، فهُم ما يُغَادِروا هذه الحياة حتى ينعدم فيهِم الإحسَاسُ والفكرُ والفهمُ؛ ما يَرْحَلُوا عنَّا حتى «يقبعون في مكانٍ» ينتفي فيه كلُّ تواصلٍ وخِطابٍ. وبذلك فإن برهنتك تلك لا تصلُ ولن تَصِلَ إليهم أبداً. بتعبيرٍ آخَر، بما أنَّني حيٌّ فأنتَ غير موجُود، لأنَّ كوني الآن سجين هيأتي الحالية يجعلُني لا أراكَ ولا أعرفك ويمنعني عن إقامةِ أي صِلَةٍ بك مادُمْتَ نفياً للحياة ذاتها؛ مُقيماً في تُخْمِ خارجَها؛ قابعاً فِيمَا ورائها. وعنْدَمَا سَتَكُونُ موجُوداً، فإنه لنْ يتاح لي إطلاقاً إدراك وجُودك ما دُمْتُ سأكون آنئذٍ قَدْ مِتُّ وأقمتُ في البياض والمحو والنِّسْيَان. وأمَّا الإصرارُ على رؤيتك، فهو ما قادني إلى مجالستك الآن ومُحَاوَرَتِكَ. نعم إنِّي أريد أن أراك قبل أن تُمِيتَنِي فتفوتني فرصةُ رؤيتك.

قـال: إذن فاستحضرْ صُوَرَ أبيك، وأمِّك، وجدِّك، وجدَّتِكَ، وأختكَ، وزوجتك الأولى، وجارَيْك: البدين الذي ألقَى بنفسه من الطَّابق العَاشِر منذُ بِضْع سنين، والطفل الذي وضع حَدّاً لوجوده زوالَ أمس بشنق نفسه.. أين كُلُّ أولئك الآن؟ هُمْ جميعا في ضيافتي مقيمون، بل ما هم الآن إلا إيَّاي وما أنا الآن إلا إيَاهُم.

قلتُ: لكنَّهم الآن تحت الأرض وأجسادُ معظمهم رَشِيَتْ وصارت عظاما وتُرابا، فهل أنتَ داخل القبور مقيم؟

قـالَ: نعمْ.

قلتُ: وإذن فكيف يُعْقَلُ أن يُقيم الترابُ والقبور بداخلي، ويحَاوراني؟

قـالَ: ألْم أقل لك منذ البداية إنِّي أقطن خارجَك وداخلَك؟ أنا كلامُك هذا وسؤالُك هذا بالضبط.

قلتُ: لكنِّي أريد معرفة مكان إقامتك بداخلي، والهيأةَ التي تقبع بها. هلْ أنتَ لغةٌ وكلام؟

قـالَ: أنا كلامُك هذا وسؤالُك هَذا.

قلتُ: هذا ما لم تَكُفَّ عن تَرْدِيدِه منذ البداية، ومع ذلك فإنَّه لم يُسهِم بأدنى قِسطٍ في تحقيق المعرفة التي أرُومُ الوصول إليها

بشأنك. فهلْ معنى تكْرارك هَذا القول أنك غير متأكِّد من وجودك؟ أنَّك تشُكُّ في نفسك؟ أنك غير واثقٍ مِنْكَ؟

قـالَ: لا. المسألةُ بسيطة جِدّاَ: فأهلُ القبُور الذين ذكَّرْتُك بِهِمْ قبل قليل سَتَصِيرُ جاراً لهم وتُقيم بينهم حالما تلْحَقُ بهم في يوم ما، في ساعةٍ ما، في لحظة ما. أتَعْلَمُ هذا؟

قلتُ: نعَمْ. أعرفه حَقَّ المعرفة.

قـالَ: إذن فاعلمْ أنَّ ما مُلْحِقُكَ بهم إلا أنَا، أنا الذي نقلتُهم جَمِيعاً إلى المقابر...

قلتُ: ما هذه إلا مراوغة أخْرى. وعلى افتراض أنَّهَا إجابة، فالأمر يظَلُّ ليس واضحاً بما فيه الكفاية، إذ يمكنُ للمرء، مثلا، أن يتساءل: أين الدَّليل على كونك أنتَ الذي تنقل الأحياءَ إلى المقابر؟ فلا أحدَ عاد يوما من القُبُور ليؤكِّد لنا أنَّك أنْتَ الذي نقلتَه إليها. ثُمَّ، مع كامل عِلمي بأنني سألتحق بهم في يومٍ ما، بعد أن أصير جثَّةً هامدةً، فإنني لا أفهم كيف سيكونُ ناقلي إليهم أنتَ، إذْ ما أدراني أنَّك لستَ سوى فكرة مجردةٍ ابتكرها الأحياء لوَصْف وضع الجثَّة الهامدة التي يؤولُون إليهَا بعْد أن يمَّحُوا/يتعرضوا للمحْو؟ ثمَّ عندما سأموت سينعدم فيَّ الإحساسُ، والصوتُ، والفكرُ، والكلامُ، والسمعُ، والبصر...؛ سأصير عَدَماً دون أن يُسمحَ لي بأن أعرف منْ «أعدَمَنِي»، بَلْ ودون أن أتمكَّنَ

حتَّى من إدراك هل أُعْدِمْتُ أم لا. فكيف أصدِّقُ أنك أنت الذي ستمحُونِي؟ بلْ وما فائدة معرفته؟

قـالَ: إذن فالْقِ بنفسك من سَطح العِمَارَة، أو ابْعَجْ بطنك أو صدرك بمِدْيَة حادة فترىَ إلى أي حدٍّ أنا موجود، وتتحقَّق من أن ليس قاتلك إلا أنا.

قلتُ: إن أفعلْ أكُن أنا الذي وضعتُ حدّاً لحياتي ومحوتُ نفسي وليس أنت.

قـال: بلْ، سأكون أنا الَّذي أمرتُك بِه.

قلتُ: قد أمرتَني به منذ لحظةٍ ولم أفعله. أرأيتَ كيف أنَّ المرء يملك أحيانا زِمَامَكَ بين يَدَيْهِ؟

قـالَ: بلْ أنا الَّذي أمرتُكَ بعدم الاستجابة لي الآن. وقد آمُرُكَ به في وقتٍ ما، من حيث لن تحتسب، وما أرى من سَبَبٍ وراء المحاورة التي تَعقِدُها معي الآن إلا جهلك بميعاده...

قلتُ: هَا قد أخبرتَني الآن بأنَّني سأموتُ مُنْتَحِرا. وسأحرصُ الحرصَ كلَّه علَى عدم وضع حَدٍّ لحياتي بنفسي.

قـالَ: اعلمْ أنَّ لي مداخلَ عِدَّة تفضي بي إليكَ. وبما أنك تَسْتدْرِجُنِي لمعرفة أوان انقضاضي عليك، وكيفَ سأَثِبُ عليك، فإني

لن أنبئك بذلك لأن ذاكَ هُو الفرق الجوهريُّ بيني وبينك. فلو أطلعتُك على ذلك لاستعددتَ كاملَ الاستعدادِ لي...

قلتُ: إنَّ شديد حرصك على عدَم إطلاَع بني البَشَرِ علَى لحظة انقضاضك عليهم لَيُوهِمُ بأنَّ معرفة تلك اللحظةِ هي سبيلُ المرْءِ إلى الخلُود، والحالُ أنَّ هذا الخلود - كمَا قدْ تَعْلَمُ - ربما لا يعدو مجرَّدَ وَهْمٍ أو فكرة ابتكرَها الأحياءُ لتسمية هذا الأفُقِ من الرَّغبة والحلْم الوَاقِعِ في الضفة الأخْرَى للمأساة التي يُوجَدُونَ أسْراها ويدعونها حياةً... وإذن، فما ضيرك إن أطلعتَني علَى موعد موتي كيْ أستَعِدَّ كاملَ الاستعدَاد لك؟ بلْ وهل سيدفعُك عَنِّي ذلك الاستعدادُ وتلك المعرفة؟

قـالَ: إنَّ ذاكَ لن يُفْقِدَنِي شيئا من فظاظتي وحتمية محوِي إياك. ومعَ ذلك فإنِّي أتمسَّكُ بشديد حِرصي على عَدم معرفتك لحظة انقضاضِي علَيك والشَّكْل الذي سأُنجِزُ به ذلكَ الانقضاض.

قلتُ: إذن فأنتَ إمَّا خائنٌ غادرٌ أو جبانٌ قاسٍ!

قـالَ: نعمْ. إن شئتَ. لكن ما ذاكَ إلا خيانتك وغدرك وجبنك. أنسَيْتَ أني بداخلك مقيمٌ، وأنِّي الصوتُ الذي يَنْطِقُكَ الآن.

قلتُ: لا، إنِّي لستُ خائنا ولا جبانا.

قـال: وإذن فالقِ بنفسِك من فوقِ العمارة، أو اجرعْ دفعةً واحدةً جميع عُلَب الدَّواءِ المحيطةِ بِكَ الآن!

قلتُ: لاَ.

قـالَ: لماذا؟

قلتُ: إنْ أفعلْ أكُنْ قد خُنْتُ هذه الأمانةَ المُودَعَةَ بداخلي منْ خِلال التعجيلِ بسحبِها منّي أو إعادتِها إلى صاحِبِهَا)فيما يعود أمرُ تحديد زمن هذه الإعادة وكيفيتهِ إلى مالِكِهَا، إلى منْ أَوْدَعَهَا بداخلي(. ثمَّ إنْ أفعلْ أتسبَّبْ للأهلِ، والأقارب، والأصدقَاء، والأحبَاب في متاعبَ وأحزانَ كثيرةٍ لا طاقة لهم بها...

قـال: إنَّ ما تُسميه أمانةً أملك فيه أيضاً قسْطا ونصيبا. فمهما حرصتَ عليها، فإنَّكَ إلَّي آيلٌ: مني أتيتَ وإلي تعودُ... أرأيتَ كيف تستنجدُ بالآخرينَ! لا شأنَ لنَا بهم الآن. فقد طلبتَني وحيدا، ولبَّيْتُ نِداءك وحيدا. ثُمَّ إني لا أرى لاكْتِرَاثِكَ هذا أَيَّ معنى عدا هذه الحقيقة المُرَّة التي تدْعُو إلى الإشفاق عليكَ: حقيقة كونك تبقَى أَسِيَر الحياة حتَّى لحظة تأهُّبِكَ لمغادرتها ووضع قدميك في عتبتي؛ حقيقة كونك تظلُّ عاجزا عن تفكير الحياة منْ داخلِ الموت وتفكير الموْت من خَارِجِ الحياة. أما علمتَ أنَّكَ ما أن تجتاز عتبة الموت حتَّى ينقطعَ حبْلُ صِلَتِكَ إلى الأبدِ بما تدعوهُ الآنَ أهلا وأحبابا وأقاربَ؟؛ ما تُمْحَى حتَّى تصيرَ بياضاً غير «مَعْنِيٍّ» على الإطلاق بالأشكَال والمحتويات التي يُعَبِّرُ بها كلُّ الذين تخلَّفُوا، من بَعْدِك، عن حُزْنِهِمْ على فُقْدَانِك؟... هيا، اِلْقِ بنفْسِكَ من سطح العمارة! اجرَعْ عُلَبَ الدواء!

قلتُ: هَبْ أنِّي فعلتُ ما أمليتَهُ عليَّ الآن. إنني أولاً لستُ متأكدا من كوْنِي أنَا الذي وضعتُ حدّاً لحياتي بمحض مشيئتي. لربما فكرةٌ ما أو رسالةٌ مَا هي التي صاغتْ نفسها وتوجَّهتْ إلى الآخرين عبر فعلي ذاك. إنَّنَا معشر الأحيَاء لا نملكُ أيَّ شيءٍ في الحياة ولا في الممات. فنحنُ نُسَاق إلى هنا سَوْقَ قطعان البهائم؛ نأتي دون أدنى استشارةٍ - على افتراضِ أنَّ هذِهِ الاستشارة ممكنةٌ ما دُمْنَا نُسَاقُ مِنَ العَدَمِ - ونُسْحَبُ دون تبرير. يتمُّ كل شيءٍ كأننا لسْنَا سوى ذريعةٍ في قضية أو صفقَةٍ في مُتَاجَرَةٍ لا ندري من يَعْقِدُهَا، ولا مع من، ولا لماذا...

قال: إنَّ ما تُسمِيه صفقةً لي فيه أيضا قسطٌ ونصيبٌ. ففي البدءِ كان الخلُودُ والحياة صِنْوَيْنِ، لكنَّ خلَلاً ما حصلَ في جهةٍ ما، لسببٍ ما، فأفلستِ الحياة. ولما أفلستْ احتاجتْ إلى لسانٍ يُعبِّرُ عن حال إفلاسِهَا، فصرتُ إياهُ. لكن قبلَ ذلك (أو بعدَه؟) كنتُ أنا الآخر والخلودُ صنوين، لكنَّ خللا ما حصل في جهةٍ ما، لسببٍ ما، فأفلسْتُ. ولما أفلستُ احتجتُ إلى لسانٍ يُعَبِّرُ عن حال إفلاسي فصارتِ الحياة إياه. وبين هذا المدِّ والجزر كانَ وجودُك أنت أيها الإنسان. فعندما أُفْلِسُ تكونُ، وعندما تُفْلِسُ الحياةُ أكون...

قلتُ: لكنْ مع هذا كله، فحياةُ الأفراد والجماعاتِ ليستْ بالفوضى التي قدْ يُوهِمُ بها كلامُك. فكلُّ شيءٍ يسير بنظامٍ وانتظامٍ، وأنتَ لا تتراءى لنا إلا نادرا؛ لا تَنْتَزِعُ منا البعض إلا بين فينةٍ وأخرى. و

أحيانا يكونُ بمشيئة المرْء أن يتراجعَ عنك، أن يتحاشاكَ، أن يؤجلك إلى لحظةٍ أخرى، أن يَشُقَّ عليك عصا الطاعة..

قـالَ: ما ذاك النظامُ إلا مبلغٌ من صفقتي. أتُرَاني كنتُ سأكون ذا طعمٍ ومذاقٍ لو كنتُ جاثما علَى الأحياء في كلِّ لحظة. لَو فعلتُ لظلَّتِ الأرض غاباتٍ وقفارا، ولما تحرَّكَ الإنسانُ قيد أنملة عن عَتَمَاتِ البدايات الأولَى.

قلـتُ: وإذن فمعنى هذا أنَّك أنْتَ الأصلُ في ما نَدْعُوهُ حضارةً...

قـالَ: نَعَمْ.

قلـتُ: إذا كان الأمرُ على ما تقولُ، فلماذا تَعْمَدُ إلى تحطيم ما تبنيه/نبنيه؟ ثُمَّ، إنَّكَ لا تزُورُ بني البشر في الغالب إلا فُرَادَى!

قـالَ: اعلم أنَّ قَتْلَ الأفراد لا يُشَكِّلُ سوى إحدى لحظتيْ سطوتي. ففي وقت معلوم سأنقَضُّ على الحياة بكاملها وأُحِيلُ الكُرَةَ الأرضية كلها إلى رميمٍ.

قلـتُ: كَيْفَ؟

قـالَ: هَا لقد ذكَّرتَني بشكْلِ ما أسميتَهُ صفْقَةً. إنَّ هذا النظام الشمسِيّ بمجمله ليس إلا مجموعة كَلاَّتٍ وُضِعَتْ في ساحةٍ؛ ليس سِوَى أدواتٍ في شَوْطِ لعبةٍ وُضِعَ فيها القمَرُ، والشَّمْسُ، والأرْضُ، والزُّهَرَةُ، وعُطَارِدُ، والمُرِّيخُ، والْمَجَرَّاتُ، كلٌّ في خَانَةٍ... فمَا الأرضُ الآن إلا

كَلَّةٌ أَحْكَمْتُ تثبيتها بين السَّبَّابَةِ والإبْهَامِ، ثم قذفتُها بأقصَى ما أُوتِيتُ من قوةٍ في اتجاه كوكبٍ آخر/كَلَّةٍ أخرى... الأرضُ الآن ماضيةٌ بسرعة مفرطة نحْو كوكبٍ آخر كيْ تصطدم به. وما يَحُولُ بينك وبين إدراك هذه السُّرعة إلاَّ هذا التفَاوت القائمُ بيني وبينك في الطبيعةِ والإحسَاسِ بالزَّمن؛ فبينما «أحيا» بـ «هيأة كائنٍ كُلِّيٍّ» تتيح مُعَايَنَةَ تعاقب شعوبكم وأجيالكم لا تحيون أنتمْ، بنو البشرِ، إلا بهيأة قطعان من الأفرادِ لا يُسمح للواحد منهُم معرفةَ حتَّى مَوْقِعه أو أثرهُ في الحياة الكبرى التي تتضمَّنُه وتتجاوزه... ثُمَّ فيما يكفي أن أغمضَ عينيَّ وأفتحهما، فأجدُ الأرض قد تلاشَتْ إثر اصطدامها بكَوْكبٍ آخر، يستحيلُ عليكمْ معاينةَ هذا الاصطدام، لأنَّ زمن «رمشةٍ من عَيْنَيَّ» هو تاريخُ نوعِكُم كله ومُدَّةُ إقامتكُم في الحياة...

قلتُ: كَيْفَ؟

قال: لتقريب الفكرةِ إلى ذهنك سأحَدِّثُك الآن بلُغَةِ الحسَاب والأرقام: هَبْ أن هذه الملايير من السَّنَوات الضوئية الفاصلة بين الأرض والكوكَبِ الذي ستصطدم به إنما هيَ مسافة مِتَرَيْنِ لا غير، أي مسافة ما يَفْصِلُ به الطفلُ كَلَّةً عن أُخرى ثُمَّ يُسَدِّد إحداهُما صَوْب الثانية. فالأرضُ تَمَّ قذفُهَا باتجاه الكَوْكبِ الذي ستصطدمُ به قبْل مجيئكم. وما انصرم من عصور وأزمنةٍ وحضاراتٍ حتَّى اليوم، وإن كانَ يبدو لكم في غاية الطُّول والبُطء، هو في الواقع قَدْ مرَّ كلُّه ولم

تجتزْ هذه الكُرَةُ رُبُعَ رُبُعَ مترٍ واحدٍ من مجمُوع المسَافة الفاصلةِ بينها وبينَ المستَقَرِّ الذي تَمَّ تصويبها نحوه!

قلـتُ: معنى ذلك أنَّ الحياةَ لا تعدو مجرَّد عرَضٍ طارئ، أو أداةٍ في شوطٍ من لعبةٍ، كما أسميتَها، وأنَّ بقاءنا أو غيابنا لا يعني شيئاً بالنِّسبة لهذه الحركةِ الكبرى التي تحتوينَا وتتجاوَزُنَا، تحتضنُنَا وتُقْصِينا في آنٍ .. ما اسْمُ هذه اللعبَة؟ مَا مَسْرَحُها؟ ما أطرافُها؟ ما سياقها؟ أيُّ شيءٍ اقتضى إيجادَها؟ وأيُّ شيء حتَّم إزالتها؟ بل ماذا كان قبلها؟ وماذا سيكونُ بعْدَها؟

قـالَ: ها قدْ وضعتَ إحدَى قدميكَ في عتبتي. أما علمتَ أنَّك بطرحِك هذه الأسئلة إنَّما تسعى إلى تحقيقِ معرفةٍ بـ«عالمٍ» غريبٍ عن كُلِّ معرفة؟ أما علمتَ أنَّ خارج هذا المَدَارِ البَشَرِيِّ - الذي وُضِعْتَ أسيراً بداخلِهِ - لا توجَدُ أيُّ معرفة؟ بلْ، أما علمتَ أنَّ ما يُدعَى معرفة إنما هو مجرد وعاءٍ ابتكرتَه لسجنِ «العالم والأشياءِ» من حوالَيْكَ، وأنَّ خارجَ جدران العقل الذي يلُفُّكَ بأغلالِه وقُيُودِه الآن لا يوجدُ عالمٌ، ولا شيء، ولا كُرة، ولا كَلَّة، ولا لُعبة، ولا زمن، ولا مدار، ولا قبل ولا بعد...؟

قلـتُ: أيها الموتُ. لقد أعياني حملُك. أَوَ لم يُعْيِكَ حملي؟ إنِّي أردتُ التخلص منك فلا تُفَكِّر فيَّ ولا أفكر فيكَ أبداً...

قـال قائل مما وراء الحياةِ والموتِ: لك أن تسلك إحدَى طرُقٍ أربعٍ:

1 - تحوَّلْ إلى إلهٍ أو ملاكٍ؛

2 - تشيَّأْ أو صِرْ حيوانا، فتُكَابِدُ الوُجُودَ دون أن تَعْقِلَه؛

3 - اغمِضْ عينيكَ وعقلَكَ معا، وضَعْ حدّاً لحياتك الآن دون أدنى تردُّدٍ.

4 - احمِلْ عصاً، ثم اخرُجْ إلى الشَّارع، فما من إنسانٍ وقعتْ عيناك عليهِ إلا وأوجِعْهُ ضرباً وأنت تُعنِّفُهُ قائلاً: «أتحسبُ أنَّ الموتَ يهمنِّي وحدي؟»...

والآن أتحسبون أن الموتَ يهمُّني وحدي؟؟

انتهَى النَّصُّ، وكُلُّ عام وأنتم بخيرٍ يا «أحياء»

خارج المدار البشري

لْم أعْرِف ولن أعرفَ، طالما حَيِيتُ، بهيأة العُشْب، هذهِ التي تلُفُّني الآن، أي رغبة موحشةٍ عاتية ساقتْ إلى عقلي تلك الأفكارَ الجهنمية آنذاك، إذ لم أفطن إلاَّ وقد صعدتُ إلى سطح العمارة، وجلستُ في حاشيته بحيثُ وضعتُ مؤخرتي على السُّورِ الأفقي المؤلف للسطح ودليتُ رجليَّ على الجدار العمُوديِّ المشرفِ على السَّاحة، ثُمَّ اتكأتُ بكلتي يديَّ واستمسَكْتُ كي أُلْقِي بجثتي في الهوَاءِ.. لحظتها بدَا النَّاسُ في ساحةِ العمارة كجماعَاتِ نملٍ تائهةٍ، ككائناتٍ مجهريةٍ... بيني وبينَ بني البشرِ مسافة شاسعةً لا يحيطُ بها وصفٌ أو عدٌّ، لا يقفُ عليها المرءُ إلا إذا اعتلى شُرْفَةَ هذا البرج الذي أطلُّ عليكم منهُ الآنَ . لكنْ مَن دلَّنِي على الوقوف في هَذَا المكَان؟!

ما أن رآني أحدُ الجيران - وكان شيخاً مُسِنًّا وقُوراً - حتَّى تدلَّى على وجههِ قناعٌ من الحسْرة. أطلَقَ صرخةً ناهِيةً عُظْمَى. أرسل إلي كلماتٍ كثيرةً موقَّعَةٍ بإشاراتٍ وخبْطٍ علَى الرّجلين.. لم أفهم أيَّ شيء مما وَدَّ نقله إلي لأن أذني كانتا قد أُغْلِقَتَا، وعقلي تعطَّلَ وذاكِرَتي ولجَتْ أولى عتبات النِّسْيَان. كنتُ على وشْكِ الخرُوجِ من المدَار البشَرِيِّ،

ولذلك بدا لي ذلكَ الشيخُ كقرْدٍ أو ببغاء يقلد حركاتِ أو كلمات مُرَوِّضٍ قاسٍ مِلْحَاحٍ. تردَّدَ في خاطري أيُّ رابطٍ سيربطني به عندما سأتحوَّلُ بعد قليلٍ إلى ذرَّاتٍ تتحلَّلُ فتصير غُبَارا يعترش فوقه العُشْب والشَّجَر وتجرفه مياهُ الأنهارِ والوديان..

تسَارعِ الناس تجاه المكان الذي كنتُ سأسْقُط فيه. وأنا جالسٌ، على وشْكِ الارتماء في الهواء، تردَّدْتُ كثيرا. غالَبَنِي النَّدَم الأكبر. هل أعدُلُ عن هذا القَرَارِ القاسي الرَّهِيب؟ فقد كُنْت أحظَى بسمعةٍ طيِّبَةٍ وتقديرٍ كبيرٍ بينَ الأهلِ والجيران، ولذلك هانَ عليَّ تسليم الرُّوح ومكابدة الآلام التي ستُسبِّبُها لي بعدَ قليل كُسور عظامي وانهمارُ دمائي ولم يهُن علي أن أتراجعَ عن مجابهةِ موتي أو تُحْبَطَ محاولتي. إنْ أفعل فسيستفزّني الأهلُ والجيرانُ بالأسئلة والإفراط في نعتي من الخلفِ بالأصابع... لذلك غالبتُ ندمِي بنشوة ممتعضةٍ. في تلك اللحظة بالضَّبْط حلَّ محلَّ ندمي الأول ندمٌ ثانٍ: قلتُ: «يا لغباوتي! لماذا اخترتُ هذه الطريقة «المتوحِّشَة» في إخراج موتي؟» الآن فقط أُدْرِكُ أنَّ أحسن طريقةٍ يملكها المرْءَ لصُنْع موته هي أن يتناولَ أكياسَ أقراصٍ ما تكادُ تجتاز حنجرته حتَّى تُنِيمُه وتميتُه فما تدعُ له وقتا حتَّى للإحساس بصيرورَة الانتقال منْ حالةِ الوعي إلى فقدانه. لكنْ ما فائدة هذا الإدرَاكِ الآن وقدْ فاتَ الأوان؟!

لما يئس الشيخُ من استجابتي لتوسُّلاته اندفع وداهمَ باب العِمارة صاعداً الدرج رفقة جماعة قصد إمسَاكي. استجبتُ لمبادرة الجمعِ بإلقاء نظرةٍ ذاهلة إلى الأسفل؛ ألقيتُ بما كان في جيبي من أقْلاَم ونُقُود، ثُمَّ أتبعتُها بالقميص وزَوْجِ الحذاءين اللتين كنتُ أنتعلهما، أو بالأحرَى تركتُهُما تنسلأَنِ من رجليَّ...

عندما افترقَ زوْجُ الحذائين عن قدمي أحسستُ بشبه رعشةٍ وألمٍ يدب في صفحةِ حَافِري. سقط الحذاءان. تابعتهما ببصري طويلاً وهُمَا يهويان على الأرضِ. لم أفهم آنئذٍ لماذا قمتُ بذلك الفعل، ولا لماذا انصرفتُ إلى ذلك التأمُّل. لكن الآن وقدْ ارتسمتْ مسافةٌ طويلةٌ بيني وبين لحظة موتِي، يمكنُ أن أعرف السَّبَب: لقد كان الموتُ يهيِّءُ نفسَهُ للانقضَاض عليَّ. وكان فعلي، ذاكَ، هو الطقسُ الذي يدشِّنُ الموتُ، مِنْ خلاله، المجزرةَ الفظيعةَ القاسيةَ التي كنتُ علَى أبوابها. ثمَّ وأنا جارٌّ جَسَدِي إلى الهاوية، إلى فعلٍ لم يسبق له أن جرَّبَه مِنْ قبل، كنتُ أقمت هوَّةً لا تُرَمَّمُ بين الشخصين أو الجثتين اللتين صِرْتُ إياهمَا في تلك اللَّحْظَةِ:

كَانَت الجثَّةُ الأولى مصممةٌ بما لا رجعة فيه علَى الارتماء، والثانيةُ رافضةٌ رفضاً مطلقا تنفيذ ذلك الفعلِ. كان الخاطرُ يبحث عن خلاصه في المحو. وكَانتِ الجثَّةُ هي المرْكبُ الذي سيُوصله إلى ذلكَ المحو. لكنَّ تمام الإبحار لم يكنْ ممكناً إلا بتحطُّم المركَبِ الذي

امتطيتُهُ (أو امتطاني؟!) كأنَّ الجثَّةَ الثانية - مَعَ انصياعها على مضَضٍ لأمرِ الأولى - كانت ترغب في اختبارِ الأثر الَّذي سيُخَلِّفُهُ السُّقُوط في الحذاءين قصدَ اسْتِسْهَال المهمة أو استصعابها أو كأنَّها كانت تستأنسُ بفعل السُّقوط أو تحاول تدجينَه. كأنها كانتْ تنقله مِنْ وضع الحركَة الشاذَّة - أو النَّادرة - الحدُوثِ إلى وضع الفعْلِ العادي. كأنِّي بها كانتْ تخاطبُ نفسَها قائلةً: «لستِ أوَّل من سيُلقي بنفسِه مِن هذا المرتفَعِ. فمِنْ قبلك ارتمتِ الأحذيةُ والأقلامُ والنُّقودُ والملابسُ...»...

نزلتِ الأشياءُ التي ألقيتها بطيئةً رتيبةً كحسَانٍ مُتَهَاديات، ثمَّ حطَّتَا فَوْق صفحةِ الأرض في أمَانٍ...

*

*　　*

لكنْ، الآن فقط أُدْرِكُ أيَّ غبن وغباوة كانا يلُفَّاني آنئذ. إذا كانتْ تلك هِي معاني فعل إسقاطي للأشياءِ التي ألقيتُ بها في الهواء قبيل ارتمَائي من سَطْحِ العمارة، فقد كنتُ أبني استنتاجاً على مقدِّمَات عرجاء: فقدْ جعلتُ نفسي من جنسِ الأحذية، والأقلامِ، والملابس... لَقَدْ حَذَّوْتُ نَفْسِي وَقَلَّمْتُهَا وَلَبَّسْتُهَا، إن جاز هذا التعبير، فاعتقدتُ أن مَتَمَّ سقوطي لن يُلْحِقَ بي إلاَّ مَا يَلْحَقُ بالأحذية والأقلاَمِ والملاَبِسِ بعد رمْيِهَا. ولعلَّ ما يؤكد ذلك كَوْني، بعد ارتمائي، نزلتُ على رِجْلَيَّ ولم أنزل على رأسي، مما يعني دون شكٍّ أنني ظللت، رغم كلِّ شيءٍ، أظنُّ أنني

سأواصلُ الحياةَ بعد السُّقُوط. لكنْ، أُوَاهٍ! ثم أُوَاهٍ! فما أنْ ألقيتُ بنفسي حتى أدركتُ حقيقة أنَّني لم أكُنْ حذاءً ولا قميصاً أو قلماً، كنتُ عِجْلاً أو صخرةً أو كيسَ إسمنتٍ، ولذلك هويتُ بأسرعِ من كُلِّ ما قد يخطُرُ على بال امرئ حيٍّ. فلحظةٌ أقلُّ من رمشَةِ عين كانت كافيةً لتهشيم عظامي وتحويلِ جسدي إلى رميمٍ...

لكن، الآن وقدْ تحوَّلْتُ إلى ذرَّاتٍ تتحلَّلُ وتتناثر، ثم تنزل إلى الأرض، فيعترشُ فوقها العشبُ والشَّجَرُ، وتجرفُهَا مياه الأنهَار والوديان، ما فائدةُ هذا «النَّقْدِ»؟!

إنِّي لا أطمع في عودةٍ إلى الحياة)أقصِدُ الحياةَ بهيأة البشَرِ(ولستُ بنادمٍ على شيءٍ، ولا أفكِّرُ في أي شيءٍ. لستُ حزينا ولا مَسْرُوراً، لستُ قلقا ولا فرحاناً، لا نادماً ولا مطمئنا... فما الكلامُ الذي أفوهُ به الآنَ إلاَّ بعضٌ من طَرَاوة النَّسِيم، وندى العُشب، وألوانُ قزح، وحنين الرِّياح، وهديرِ الموجِ، وأزيز الرَّعْدِ، وقرعِ الطبول، وخرير المياه. فيا معْشَرَ الأحياء! خَسِئْتُمْ إن ظننتم أنَّ وُجُود هَذه الحياة مُتَوَقِّفٌ على وجودكُم أو أنَّكُم وحْدَكُمُ الأحياء، أو أنَّ شكلَ الحياة الوحيدَ الممكن هُوَ الحركةُ والنَّفَسُ والكلام والهيأة المجسَّدَةَ. ارهفوا آذانكَم وافتحوا أعينكم تَرَون كم يحيط بكم من «أشكَال» الحيَوات التي لا يحيط بها عَدٌّ ولا حصرٌ. أطِلُّوا من شُرفة مداركُم قليلاً تتحقَّقُوا من وُجودنا وتسمعوا لغاتِنَا. ومتى تحقَّقْتُم مِنْ ذلكَ وجَدْتُم أنَّنا وإياكُم لا

نعدو أحَدَ اثنين: فإمَّا أنَّكُم سؤالٌ نحنُ الجواب عنه أو أنَّنا سؤال أنتم الإجابَة عنه. فكُفُّوا عن الأوهام وتعالوا نؤثث هذا الوجود بصيغةٍ أجملَ وأكْملَ، تمحو اللُّغَة، وتُعْدِمُ الفِكْرَ، وتُبَخِّرُ الهيأةَ، وتنصِّبُ النَّشْوةَ الذاهلةَ الفرحانةَ بديلا لكلِّ إحسَاسٍ وَوُجُودٍ...

*

* *

ما إن لاحتْ لي صلعةُ الشيخ من الباب المفضي إلى سطحِ العمارة حتَّى ألقيتُ بنفسي إلى أسفل. هلْ كان ذلك الشَّخْصُ هو السبب في موتي؟ لستُ أدري! لكن كل ما أذكُرُه الآن هو أن كل شيءٍ تَمَّ وكأنَّ موتي كان سيكُون في تمكُّن الجماعة من الإمساك بي، أي كما لو كان موتي هُوَ أن تفلحَ [الجماعة] في منعي من الارتماء، وكما لو كانت حياتي ستكونُ في إفلاتي من قبضةِ مُطَارِدِي. بتعبيرٍ آخر، لما أوشك القومُ على القبْض عليَّ وجدتُ نفسي مضطرّاً أن أُلقي بنفسي إلى أسفل كي أتجَّنب الموتَ/أتخلَّصَ منهم/أُوَاصِلَ الحياة. وما يؤكد ذلك هو كوْنِي، بعد ارتمائي، نزلتُ على رجليَّ ولم أهبط علَى رأسِي، مما يعني دون شكٍّ أنَّي، رغم كل شيءٍ، قد ظلَلْتُ أظن أنني كنتُ سأبقى حيّاً بعد السُّقوط. نعم! ذاك هو المنطقُ الذي فكَّرتُ به في تلك اللحظةِ. ولاَ تسْتَغْرِبُوا فقد حضرتُ في روضة الموتى مجالسَ سمعتُ فيها شهاداتٍ لو سمعتمُوها لَتمزقَّتْ أحشاؤكم سخريةً وشفقةً على هشاشة المسَالك

التي تُفضِي أحيانا بالإنسَان إلى الموتِ، ثمَّ قلتم مستغربين: «أهذا هُوَ الإنسَان؟!». نعمْ، ذاك هو الإنسان. ومن شاءَ التأكد فلينتظر أن تَتَمَطَّى عليهِ ظلالُ الكائن - المعترشةُ بداخلهِ - لحظةَ يداهمُهُ زلزالٌ مروعٌ، أو فيضانٌ مهولٌ، أوحريقٌ مرعبٌ، ثم ليراقب تلك الحركاتِ والتَّصَرُّفات التي ستصدر عنه إزاءَ من يحيطون به مِمَّن كانَ يدْعُوهم إلى ذلك الحينِ «أهلاً»، أو «أقاربَ»، أو «أحباباً»...

اقتربَ منّي الجمع الذي يروم إنقَاذِي. أسندتُ جثتي علَى صفحتي يدِي ورِجلاي مُدَلاَّتين في الهواء، ثمَّ استمسَكْتُ وثبتُّ يديَّ علَى السَّطح بقوة وسحبتُهما ملقياً بنفسي في الخواءِ. فعلتُ ذلك بجسَارَةٍ نادرة يلُفُّها شعورٌ مزودج: دقَّاتُ قلب سريعة (أهي بقيةُ الفزع الذي أثارتهُ فيَّ جماعةُ الجيران التي أوشكَتْ علَى إلقاء القبضِ عليَّ ومنعي من الارتماءِ أم هي بداية الهلع منَ المصير الَّذي ستؤُول إليه جثتي بعد ثوان؟)، ثمَّ فرحةٌ عارمةٌ لخلاصِي من الوقوع في قبضة الرَّاغِبِين في إنقاذي. لكنْ مَا أن اجتاز جسَدي أولَ طابق، من الطوابقِ العشرة، في اتجاه الأسفل حتَّى غدا الأمرُ مِنَ القوَّةِ والرُّعْب بحيث اضطررتُ لإغماضِ عيني. ألفيتُنِي هاويا بسرعةٍ لا تُصدَّق. عمَّ جسدي ارتعاش مفرطٌ. اجتاح صفحة قدمَي ذلك الإحساسُ نفسه الذي يكتسح رِجْلَي المرءِ قُبَيْل أن تهوي عليهما أولُ ضربةٍ من هراوة جلاَّدٍ قاسٍ لا يعرف رحمة ولا شفقة مصمّمٍ على تهشيم عظامِ ضحيته ضربا. لقد وضعني ارتمائي أمامَ الأمر الواقعِ؛ أمام الحقيقة القاهِرَة المتمثلة في حتمية موتي واستحالةِ

إمكانية عودتي أو تراجُعِي. عاودني النَّدَم.. لكنْ هذه المرَّة ليس ندم اتخاذ قرارِ الموت، كما حصلَ في المرة الأولى، ولا ندم اختيار هذهِ الطريقة «المتوحشة» بدل طريقةِ تناول كمية كُبرى من العقاقير القاتِلَة، وإنما فقط ندمُ كَوْني لم أمكث جالساً فوق سطح العمارة؛ ندم كوني ألقيتُ بجثتي منَ السَّطْح لأن الحياةَ عندي اختُزِلتْ إلى وضع الجلوس الذي غادرتُهُ قبل لحظة. وأنا هاوٍ إلى أسفل، نسيتُ الشيخ، والجماعةَ، وعائلتي، وحياتي، ومنزلِي، وأهلِي... غامَتِ الحياةُ في ذهنِي وتقلَّصَتْ ذكراها والرغبة فيها في مشهدِ جلوسي على حافةِ سطْح العمارة. أُجْهِدُ عيني كي تنظُرَا إلى السطح. لا أقوى على رفع رأسي لأنِّي ساقطٌ بسرْعَةٍ مفرطةٍ، أحاول الإمساك بحاشية إحدى هذهِ النوافذ والتعلُّق بها. لا أقوَى على ذلكَ. فما من واحدةٍ منها إلا وتمرُّ بمحاذاتي مرُورَ البرق أو أسرع. أتمنَّى لوْ تَنْبُت لي أجنحةٌ بالسرعة ذاتها فأطير. يعاودني السؤالُ الذي ما انفككتُ أطرحُهُ منذ وضعتُ قدمي في هذه الحياة: «أحقّاً أنِّي وُلِدْتُ بأكملِ هيأةٍ؟ لماذا لم أُولَد بأجنحةٍ كالطيور؟ لماذا وُلِدْتُ بيدين، ورجلين، وطحالٍ، ومعدةٍ لا تكُفُّ عنْ إيجاعي، فأَبْكي على رأْسِ كُلِّ ساعة طالبا الرَّضَاعة؟». إن هيأةَ هذا الطَّائِر الصَّغير الذي ينتهي إلى أذني الآن صفيرُهُ، والذي لم أكف طوال حياتي عن النَّظَر إليه بإشفاقٍ ممزوج بكبرياءٍ، بذريعة أنِّي أذكَى المخلوقات وأعقلها، بذريعة أني خُلِقْت في أكْمَل هيأة... إنَّ هيأة ذلك الطائر الآن لَهِيَ طوقُ نجاتي ومفتاح بقائي الممكِنِ في هذا الوجود. لكِنْ من أينَ لي

أن أطير، أنا الَّذِي سُجِنْتُ داخل هيأة أُنْزِلَتْ منزلة ذوات الأربعِ فما تستطيع التنقُّلَ إلا دبّاً أو مشيا! تتراكضُ في ذهني أماني بهيأة أسئلةٍ عديدة لكنها لا تِجدُ من جوابٍ سوى هذه الحقيقةِ المأساوية المتمثلة في إقبالِ جُثَّتِي علَى المحو بعد أن تتهشَّمَ في رمشة عينٍ وتتحول إلى رميمٍ: لماذا سُخِّرَتْ هذِه الجاذبية للحيلولة بيننا، نحنُ بني البشر، وبين القُدْرَة علَى مَشْيٍ مُزْدَوِجٍ، على الأصابعِ والحوافرِ، يُتيح لنا التحرُّكَ في الأرض والفضاء كما لَوْ كنا أسماكا؟...

جسدي الآن نازلٌ إلى قعر الهاوية، على مشارفِ الكارثة، فما أحْوَجَنِي إلى الشَّفقة، ثم ما أحْوَجَنِي إليها!!!

وأنا هاوٍ، تضخَّم الإحسَاسُ بداخلي وتمطَّط الزَّمن حتى أصبحتِ المدة التي استغرقها سقوطي تعادل مجموع سني حياتي أو أكثر. أحسستُ كأنني أدبُّ أو أزحفُ نحو الأسفل وكأنَّ سقوطي سفرٌ حقيقيٌّ يعادلُ الانتقال من مجرَّة إلى أخرَى: صارتِ الطوابقُ تصعَدُ الواحِد تِلْوَ الآخر في حركةٍ مُعاكسةٍ لاتجاه جسَدي ببطءٍ رتيبٍ أنسَاني رُعْبَ اصطدامي المرتَقَبِ بصفحة الأرض إلى أن استعجلتُ تحققه لأتخلَّصَ من الرُّعب الأول، خاصَّة وأنني بعدما تكيَّفتُ مع وضعي الوُجُودي الجديد، وركَّزتُ عينَّي في الأرض، أخذتْ هذه الأخيرة تبدُو لي هي الهاوية عليَّ: خُيِّل إلي أنني كنتُ كائنا يحيا في الفضاء، في وضْعٍ مقلوب بالمقارنة مع بني البشرِ: صارَ ما يسمونه رَأْساً - بالنسبة إليَّ - قدَما،

وصَار ما يسمونه رِجْلاً - بالنسبة إلي - رأسا. أهي أُمْنِيَة المشي المزدوج تحقَّقَتْ أم تُرَاني بالاستيهام احتميتُ من رُعْبِ السُّقُوط؟!

*

*   *

أوَّلُ ما اصطدمَ مِنْ أعضاء جسدي بالأرض القَدَمَانِ. كَانَ الاصطدامُ من العنف، لثِقْلِ الأرض، بحيثُ ما أن لمسَتْ صفحتا قدمَيَّ الأرض حتى هَوَى فخذاي والنِّصْف الأعلى من جسَدي على السَّاقين. تمزَّق جِلْدُ ركبَتَيَّ.. خرج منهما رأسا قَصَبَتَيِ السَّاقين وعظَمَا الفَخِذين بعدما انحلَّ مُلْتَقَى تَمَفْصُلهِمَا. هَشَّمَتِ الرَّضْفَتَانِ قَصَبَتَيِ الساقين. تعالى سَيْلُ الدِّمَاء الفوَّارَة. ترتَّبَ عن متمِّ انطواءِ رِجْلَيَّ والتقاء عَظْمَيِ السَّاقين بِعَظْمَيِ الفخذين اصطدامٌ عنيفٌ لِعَجُزِي وعُصْعُصَتِي وحَرْقَفَتِي بالأرض.فتهشَّمَتْ كلها عن آخرها. وخلال الضغط المترتِّبِ عن اندفاع نصْفِ جسَدِي - السُّفْلِي، الذي اصطدم بالأرض- إلى أعلى وانهيار النصف الآخر (العُلْوِيِّ) انقضَّ عليَّ الموتُ: تهشَّمت عظامُ قَفَصِي الصَّدْرِيِّ فور انْعِجَانِ ما بينها من لحمٍ وعظمٍ وعَصَبٍ، ثم تسرَّبَت الأحشاء، والرئتان، والطِّحال، والقلب. انبعثت في المكَان تلك الرَّائحة ذاتها التي تنبعث من البهائم لحظةَ ذبحها وسلخها وتفريغ أحشائها... تداعتْ أعضائي كما تتداعى صُرُوحُ المدُن تحت الزلازل

العُظمى. أحدث ذلك رجَّةً عنيفة. واكب الرَّجَّةَ ألمٌ أعظمُ وأبهى. كأن ديناميتَ بداخلي يتفاعلُ، على وشْكِ الانفجار ولا ينفجرُ. للخلاص من هذا الألم، أتمنَّى لو أن مخالبَ طويلةً حادة تنهشُ لحمي نهشا فتحيلُه إلى أشلاء؛ لو أنَّ أسرابا من النُّسُور والغربان تحطُّ فوق هذه الجثة/الوليمة وتلتهمها في بضع ثوانٍ...أَعْقَبَ ذلك الألم المرعب لذة اعتصرتني كما تعصرُ المرءَ رعشةُ الإنزال. حدثَ ذلك في أقل من لمح البصرِ، ولذلك تهاوَى الإحسَاسُ بداخلي، ثم خرجتُ عن المدار الإنسانيِّ تاركا جسدي يرتعشُ. وخلال ذلك كلِّه كان المشهدُ بدمائه الفوارة الحمراء الملفوفة بالصَّمْت والغُبْن والعجْزِ يُذكِّرُ بذبحِ عجلٍ أو خروف في مجزرةٍ بشعةٍ...

*

*　　*

انحنى الشَّيخُ على رأسي. فتَحَ رمْشَيْ عينيَّ باحثا عن أثرٍ للحياة فيهما. لم يجدْ داخل العينين الغائرتين في محجريهمَا إلا بياضا. أطلقَ زفرَة حسرةٍ عميقةٍ، وقال كلاماً كثيرا لم أتبيَّن منه سوى كَلِمَتَي: «اَللَّه! يَا لَطِيف!» اللتين تردَّدتا كثيرا. تجمهرَ حول الجثَّة الممدَّدة حشدٌ من الجيران وأهلِ الفُضُول. بدا المشهدُ كمسرحيةٍ بشِعَةٍ مؤلمة. ساد صمتٌ رهيبٌ. أحسستُ بالصِّغر والغبن لكوني، من جهةٍ، تحولتُ إلى موضوع فرجةٍ لا أملكُ فيها حتى قدرة الامتناع عن أداءِ الدَّور الذي «كُلِّفْتُ»

بأدائه فأحرى إباحة مُشَاهَدَتِي أو حظرها على الآخرينَ بالنظر إلى أنني لم أعُدْ مِلكا لنفسي، ولكوني، من جهةٍ أخْرَى، تشيَّأْتُ: تحوَّلتُ إلى ما يشبه كيساً مُهْمَلا أو حجرا مُلْقى على قارعَةِ الطَّرِيقِ.

دارتْ بخاطري أفكارٌ كثيرةٌ. انفتحتْ مغالقُ اللغة بدهَاليز عقلي. أردتُ أن أنقُلَ قدْرا زهيداً مما أشرقَ عليَّ من المعارف والحِكَم والأسْرَار. لكنْ كلَّما رُمْتُ تحريكَ لساني وجدته صلبا كالحجر. أيقنتُ أنني قد غُبنتُ. أحاول أن أطلق صرخةً مُدَوِّيَةً. لا أقوى على فعل أيِّ شيءٍ عدا البقاء في وضع التَّمَدُّدِ جثةً هامدةً صامتة ملفوفةً بالصَّمت والغبن والحقد على نفسي وعَلَى من تخلَّفُوا من ورائي: على نفسِي لكوني عجَّلْتُ بوضع حدٍّ لها. لماذا لم أترُك هذه الجثة تقتاتُ، وتسيرُ، وتفرَحُ، وتَنْكِحُ، وتبكي لمدة أخرى من الزمن إلى أن يناديها صاحبُها ويمحوها من بعيد؟... وعلى الآخرين لأنَّ لا أحَد منهمُ الآن يحسُّ بعمقِ هذه المأساة التي عجَّلْتُ بإخراجها عِلْماً بأنَّهم مهمَا طالت بهمُ الأعمار فمآلهم إليها. هُمُ الآن يركضون ويملأون ظهرَ الأرض كلاماً وضجيجاً وضراطاً: أحدُهُم الآن راكبٌ فوق أنثى مستسلما لنشوة الجماع يَنْعَصِرُ؛ آخرٌ يتلذَّذُ الآن، في اللحظة نفسها، بتأمُّل مشاهد المرُوج المعْشَوْشِبَةِ الزَّاهرة على إيقاع أصوات الطُّيور؛ آخر يتصبب الآن، في اللَّحْظة ذاتها، عرَقا من جراء تصلُّبِ عضلاته واستمسَاكِهَا المرَّة تِلْوَ الأخرى ليَهْويَ على سطح الأرض بفأسٍ أو يشقها بمحراث؛ آخرٌ يعصر دماغُه الآن، في اللحظة نفسها، لحلِّ معادلاتٍ رياضية أو إنجاز تجاربَ

كيميائيةٍ. آخرٌ قاعدٌ الآن، في اللحظة نفسها، فوق طشْتٍ يفرغ بطنه وأمعاءه... وأنا الآن أنْعَصِرُ من الألم ماضيا نحو محوِي وحيدا صامتاً عاريا. لو كنتُ علمتُ أنَّ لحظة الاحتضار كانتْ ستكونُ بهذه المرَارَة لسُقْتُ معي قطيعا ضخما من الأحياء؛ لقتلتُ معي ما استطعتُ من الناس كيْ أُضَاعِفَ هذا الألم المرعب مرَّتين: مرَّة بما سيُعَانِيه رفاقي في الموتِ من آلام الاحتِضَار، ومرَّة بما سيُصِيب أقاربَ وأهلَ وأصدقاءَ كلِّ ميّتٍ يرافقني من غَمِّ الفُقدان. بلْ لو ملكتُ لفجَّرْتُ هذا الكوكب الأرضيَّ كله في رمشة عينٍ فأضعُ بذلك حدّاً لهذه الأسْطوَانَةِ البالية التي صَدِئَتْ من التكرار... لن يُغْبَنَ أحدٌ آنذاك. مساواةٌ مطلقة سأنجزُها. الكلُّ يموت مع الكلِّ دفعة واحدة. مقبرةٌ للبشرية جمعاء. تنقرضُ الحيَاةُ بكامِلِهَا فلا عُشبَ بعد اليوم، ولا ذرَّةَ، ولا غُبارَ، ولا زهْرَ، ولا نهْرَ، ولا مَطَرَ، ولا شَجَرَ... لكن أنَّى لي ذلك الآن وأنا جثَّة ممددة هامدَةٌ تحتضرُ!

تتناهى إلى أذني أصواتٌ مُلِحَّةٌ مُستفزَّة، لكنني أعجز عن تبيُّنِ حال أصحابها. أُجهِدِ نفسي في فتح عينيَّ. أتمكَّن أخيرا من مُشَاهَدَةِ أجسادٍ تنِطُّ فوق الأرض كالرَّاقصة المسْدَلة الشَّعر مثل سَعَفِ النَّخِيل وهي تنِطُّ سريعة حركات الأيدي والأرجُل: «أفَرَحاً أم حُزنا؟» ذلك ما لم أستطع معرفتَه حتَّى الآن. ألا ما أشبهَ تقاسيم وجه الإنسانِ وملامِحَهُ والحركات والأصوات التي يُصْدرُها في قمة فرحه بتلك التي يُصْدِرُها في منتهى فزعه! ما تلك الأجسادُ الراقصة الصارخة الباكية/الفرحانةُ إلا

أجساد أهْلِي وأقاربي . أريدُ أن أكُفَّهم عن ذلك. لا أقْوَى على القيام بأيِّ شيءٍ عدا البقاء جُثَّةَ هامدة. لقد أوشكْتُ الآن على مُغَادَرة المدار الإنسانيِّ. أنا الآن بصدد التحول إلى ذرَّات عمَّا قريب ستتحلل ويعترِشُ فوقها العُشب والزَّهْر والشَّجَرُ وتجرفها مياهُ الأنهار والوديان...

*

* *

لما كنتُ مُلقى فوقَ الأرض جثَّة هامدة أحتضرُ، لما كانتْ عظامي مهشمة ورأسي غارقاً في سيل الدماء المتسرِّبَة مِنَ الأذنين والأنف والفَم، كُنت أُدرك كل شيءٍ، لكنني كنتُ في منتهى العجزِ والضُّعف. أريد الكلامَ. لا أقوى على الكَلام. أتمنَّى لو كان بمتناولي حيلة أو وسيلة تمكنني من مجرَّد نقل إحسَاسِ الغبن والعجز والضُّعف - الذي يغمرني الآن - إلى الآخرين. لكنْ ما فائدة التَّمَنِّي وأنا على مشارف المحو؟! تتبادرُ إلى ذهني أشياء كثيرة. أتمنَّى لو تعودُ إليَّ القدرة على الوقوفِ والمشي والكلامِ ولو لحظة واحدة كيْ أقضي حوائجَ فاتَتِي قضاؤُها لما كنتُ حيا، حوائج قد تبدو في منتهى التفاهة، لكنَّها عندي ذات أهمية قصوى. لحظة وَاحِدة فقَط لمجرد تقبيل الأهْلِ والأحبَابِ والتلفُّظ بكلمة: «وداعاً. إلى اللقَاء. فأنا مَيِّتٌ» أو لإلقاء نظرةٍ واحدة أخيرة على هذه الحياة. لكن جميع تلكَ الأماني كانتْ تصطدمُ بحاجزِ الموت الضَّخم المنتصِبِ الآن بيني وبينَ الحياة... والآنَ وقد وَضَعْتُ قدمي في أوَّل عتبةٍ

للتحول إلى عظامٍ وتُرَاب... الآن فقط أُدْرِك عمق المفارقة القائمة بين الحياةِ والموتِ. لكنْ ما فائدة هذا الإدراك وأنا سأمحى بعدَ حينٍ وأتحولُ إلى مجرَّد كلمةٍ، إلى محضِ ذكْرَى غائمة!...

عندما نكونُ أحياءً، تمنحُ الحياة نفسَهَا لنا بسَخَاء يكونُ من الكثرة والإسرَاف بحيث يُبديها ذميمةً تافهةً مُمِلَّة، فنستهلكُ الأيَّام والليالي دون أن نُكَلِّف أنفسَنَا عناء حتى تذوقُ طعمها المتجَدِّدِ - مع ذلك في كل صباح - متناسين أنَّنا في يومٍ من الأيام سنتَلَقَّى رسالةً أو أمراً لا مردَّ له يُجبرنا على إلقاءِ تحيةِ الوداع لهذه الحياة ويُجْبِرُنا على الانصراف صامتين عارينَ إلى حيثُ لا نَدْرِي حارماً إيانا إلى الأبدِ مما كُنَّا إياهُ إلى ذلِك الحين... لكِن ما أن تحين لحظةُ الاحتضار حتَّى تتمنَّع تلك الحياةُ «التافهةُ الذَّميمةُ المِلَّةُ» نفسُها وينقلبُ سخاؤُها إلى تنكُّرٍ قاسٍ مطلقٍ، فتعاملنا كأننا لم يسبق لنا أن عرَفْنَاها أو عرفتنا قطُّ: كأننا غُرَبَاء عنها وهي غريبةً عنا تماما؛ تبخلُ علينا بمجرد لحظة وكأنَّ بقاءَها بمجمله يتوقَّف على هِبَةِ تلك اللحظة: كأنها تخشى أن نُلحِق بها عدوى الموت والفناء...

والموتُ! عندما نكُونُ في غمرة الحياة يتحاشانا حتَّى إننا لنَنْهَمِك في تعاطي كُؤُوس الحياة حتَّى الثَّمَالَة وننساه متصرِّفين كمَا لو كنا فيها خالدين. يتنكَّرُ وراء كلمةٍ من الصِّغر بحيث لا نُعِيرُ لوجودهَا مِن حوالينا أدنى اهتمامٍ. لكن ما أن تتنكر لنا الحياةُ ونُؤْمَرُ بوضع حملهَا،

ويتأهَّبُ هو للانقضاض علينَا حتَّى نُدرك أي قسوةٍ وأي فظاعة تختفيان وراء تلك الكلِمَةِ الصَّغيرة. الموتُ كَارِثَةٌ يستحيلُ تجنبها. مأساةٌ تقلِبُ أعماراً كاملة، في رمشة عينٍ، إلى عبثٍ وتحيل قصور الأماني إلى ذرات تتناثرها ريَاحُ المطلَق الهوجَاء؛ مأساةٌ تضع مشاغِل الأحياء وأعمالَهم ومشاريعهم برُمَّتِهَا موضِعَ استفهام.

اسمعوا يا معشرَ الأحياء. مهما صدرَ عنكم من سُلوكات قاسية ولا أخلاقيةٍ فهو ليس بشيءٍ أمام بشاعة الموت وجُبنه وقسوته. استبدلوا كلمة «موتٍ» بكلمةٍ أبلغ، لأنَّها لا تفيدُ معنى المَوْت الَّذي أنا إياه الآن...

أتُراني كنتُ سأتجنب هذه الكارثة لو لم أضعْ حدّاً لحياتي؟ بالتأكيد لا. فما أجتازُه الآن يجتازه كلُّ إنسانٍ سواءٌ داستْهُ سيارة، أو داهمَهُ قطارٌ، أو أصابته رصاصةٌ، أو غرق في بحرٍ، أو ارتمى من شرفةٍ قنطرةٍ أو من طوابق عُليا، أو احتضر في فراشٍ بين الأهل والأقارب. يغمرني عزاءٌ فرِحٌ نشوانٌ عندما تتألَّقُ في ذهني الحقيقةُ التَّالية: ما الحياة إلا وهْمٌ. وما الأحياء في قيامهم وقُعودهِمْ وممشاهم وسُكونهم سوى جثثٍ ممددة تحتضرُ كما أحتضرُ الآن. ما يُفَرّقُ بيننا سوى الشَّكل الذي تمدَّدَ به كلٌّ منا: همْ يحتضرون ماشين ومتكلّمين وعاملين... وأنا أحتضرُ طريحاً مُهَشَّمَ الرأس والأضلُعِ. بل أليس المشيُ والوقوفُ والكلامُ والعملُ سوى وجهٍ آخر للجثَّة المَمَدَّدَة السابحة فوق

الدماء التي أنا إياها الآن؟ وعليه، يجبُ حذفُ أحد مُكَوِّنَيِ الزَّوج حياة/موت والإبقاء على واحدٍ فقط. ذلك أنَّنَا لا ننتقل من الحياة إلى الموتِ. نحن أسرى داخل موتٍ مطلقٍ أو حياةٍ مُطْلَقَةٍ.

عتبة المَحو

إلى روح العزيز مولاي الذي لم يجد سبيلا آخر للإشفاق على نفسه عدى وضع حد لها بإفراغ بندقية صيد في رأسه.

عندما ضاقت بي سبل العيش واسودَّت الدنيا في عيني قررت بما لا رجعة فيه فررتُ أن أضع حدا لحياتي. حملت البندقية بين يدي، ثم اختليت داخل غرفة بالمنزل. ها أنتَ يا أنا رأسا لرأس، وجها لوجه. هيأتُ للأمر طيلة ستة أشهر ظل أبنائي على امتدادها ما يتراءون لي بهيأة مشاريع يتامى، فكانت كل ضجة تصدر من أحدهم إلا وتثير في شعورا متناقضا: الإحساس بالشفقة عليهم من رعب الحقيقة التي أخفيها عنهم، والحقد الشديد على نفسي لكوني أحجب شيئا عنهم. ففيما يتضاحك الأبناء من حولي على مائدة الطعام أو في إحدى الأمسيات الساهرة أمام شاشة التلفزيون، ويخططون للأشهر المقبلة، بل وحتى للعام أو الأعوام المقبلة مدرجين إياي في تخطيطاتهم، منيطين بي أدوارا، أعلم علم اليقين أن كل ما يقولونه عبث مادمتُ قد خططتُ لاغتيال نفسي في أحد الصباحات... لكن، ألا يقوم الشرط

الإنساني نفسه على هذه الخدعة؟ فنحن نمشي ونأكل ونشرب ونفكر ونخطط، لكن بيننا وبين مآل مشاريعنا تنسدل حجبٌ كثيفة لا ندري من أسدلها عنا ولا لماذا، فيعتزم أحدنا القيام بعمل صبيحة الغد، لكن ما يمتطي الحافلة أو السيارة حتى يستحيل إلى أشلاء على إثر حادثة سير مرعبة، أو يحل به مرض عضال لا ينفع معه علاج، فتتحول المشاريع السابقة كلها إلى ضرب من العبث. آه، لو كان الأحياء يعلمون متى يموتون وأين لقاسوا مشاريعهم بمقاسات دقيقة فما يتركون وراءهم للعبث إلا الريح. لمضى كل وقد أتم مشاريعه قاطبة...

كل شيء يبدو كما لو كان مستقبلنا إبحارا في ماضٍ، سطَّرَته لنا قوة خفية، قوة من كلية الحضور والوجود على مستوى الزمان والمكان بحيث، مع استحواذها التام علينا، تسبق وجودنا الحالي بشوطين: الشوط الذي نحنُ فيه الآن، ونسميه حاضرا، والشوط الذي نتقدم نحوه ونسميه مستقبلا، وشوط آخر يتعذر علينا إدراكه أو تصوره، ويمكن تسميته بمستقبل المستقبل. وبذلك، يمكن أن أعتبر نفسي الآن حيٌّ، لكن القوة السابقة لا تعتبرني ميتا فحسب، بل ولها معرفة تامة بكيفية موتي وزمنه ومكانه، علما بأني لا زلتُ متوجها نحوه.

لمَّا قررتُ بما لا رجعة فيه وضع حدٍّ لحياتي كنتُ لاحقا بهذه القوة، مواكبا لها، انتقلتُ إلى الشوط (أو النمط أو الشرط، سموه ما

شئتم) الثالث، التحقتُ بمعقل الآلهة، إن شئتم، مع فارق واحد هو أن الآلهة لا تموت، بينما أنا سأموت.

*

* *

طَّاق، ثُمَّ ها أنذا أطأ أولى عتبات المحو. طَّاقْ، ثمَّ ها أنذا أتحول، وفي أقل من لمح البصر، من نمطٍ وجوديٍّ إلى «نمط» مخالفٍ تماما. طَّاق في البطن، وببندقية صَيْدٍ! أكثر من ذلك داخل غرفةٍ أحكمتُ سَدَّها عليَّ بقفلٍ قبل أن أقدم على ما نقلني إلى الحالة التي عليها الآن: بين الإغماء واليقظة، الآلام الموجعة تمزق الأحشاء، الأمعاء والكبد والطحال والكليتان، كلٌّ اخترقته شظايا الرصاص. أما الظهر فقد انحفرت فيه فتحة بحجم فوهة مدفع، الدمُ يندفع من البطن والظهر كجسدٍ غريبٍ عنِّي. أجهد يديَّ لإمساك تدفقه، بشدِّ صفحتي الكفين على البطن والظهر، بالتناوب، لكني لستُ أملك حولا أو قوة لإمساك السيلان. الآن أقف على ما كنت أخمنه دوما، عندما كنتُ حيّاً، بخصوص عبور موتى الحوادث والاغتيالات إلى الجهة الأخرى. تكونُ مارّا في الطريق، راجلا أو على متن سيارة وأنت تفكِّرُ في مشاريعك، فيما ستفعله بعد قليلٍ، في ما ستقوم به في المساء، في ما رتَّبْتَ لإنجازه في اليوم الموالي، تكون سائرا وأنت تخطط لمشاريعك المستقبلية، ثم فجأة تسمع الرَّاق، وها أنت مُمَدَّدٌ على قارعة الطريق أو سجين بين

قطع الحديد التي تكون قد تخللت لحمك وعظمك، تجد نفسك على تلك الحال وقد تحلَّقَ الناسُ من حواليكَ، وسائِلٌ دافئٌ يتدفق من رأسك، أو أذنيك وأنفك، أو قفصك الصدري... فتفطن إلى أن قطعة حديد أو خشب قد هوت عليك من أعلى عمارة فهشَّمَتْ رَأْسَكَ، أو أن سيارة داستك بغتة، أو أن السَّيارة التي كنت تسوقها قد زاغت بك، فانقلبت أو اصطدمت بشجرة أو بسيارة أخرى، أو أن الحافلة التي كنت تمتطيها قد سقطت من أعلى قنطرة أو اصطدمت بشاحنة أو بما لست أدري، فتفهم أنْ ليس الدَّمَ الرَّاشِحَ إلا علامةً أو إشارة أو دعوة - لا يهمُّ أي الأسماء تطلق عليها لأن ذلك كله لن يغير من الأمر شيئا - علامة أو إشارة قسرية أتتك من دون استئذان أو سابق إعلام، دعوة من القوة بحيث لا تترك لك فرصة حتَّى لإبداء ولو مجرد رأي فيها فأحرى التردد في الاستجابة إليها أو محاولة مراوغتها، فلا تملك إلا الاستسلام والمضي إلى الضفة الأخرى صامتا عاريا متحسرا دون أن تتمكن حتى من تذوق طعم الحسرة والصمت والعراء الذين بدواخلهم تمضي ملفوفا إلى ضفة المحو المنصوبة فخاخها وشراكها في كل خطوة من خطوات الحياة.

لستُ أملك الآن أي حول أو قوة لإمساك الدم الدافئ المتسرب من بطني وظهري. شُلَّت قدمايَ ويداي، غمر رأسي دوارٌ شديدٌ. أريد أن أصرخ، لا أقوى على الصراخ، أحاول أن أتأوه فقط، لا أقوى على التأوه، لأن الهواء نفسه تجمَّد في رئتي. أتمَزَّقُ بين إحساسين

متعارضين: الأول نفورٌ تامٌّ من هذا الوضع، رغبة في البقاء، لكنني لم أسدد الطلقة إلى بطني إلا بعد أن لم أترك أي أملٍ للأهل أو الأقارب في إنقاذي، فقد أحكمتُ إغلاق باب الغرفة من ورائي بالمفتاح، ولذلك فأحدٌ ممَّن بالبيت لم يسمع حتَّى صوت الطلقة. لو لم أفعل ذلك لسمعوا الطلقة، وهرعوا إليَّ حال خروج أول قطرة دم من جسدي، ولكنتُ الآن في سرير مستشفى، ولواصلتُ الحياة على الأقل خمس ساعات أخرى... لكن ذلك كله الآن مستحيل. الآن فقط أدرك ما اجتازه صاحب الجثة التي صادفتها عند مدخل مدينة فاس حوالي شهرين: كان ملقى وسط الطريق، ربما داسته سيارةٌ لم تحكم مداهمته، صدم مقبض أحد أبوابها جزءا من جسده، فأسقطته ممدَّدا، ولاذ السائق بالفرار، دَوَّخَتْهُ.. وهو وسط الطريق كان حيا، وهو يعي تمام الوعي أنه حيٌّ، لكن دوار الرأس والوهن المترتبين عن عنف الاصطدام كانا يحولان بينه وبين القدرة على الوقوف. كان يعي تمام الوعي أنه ملقى وسط الطريق، وأنه في منتهى الخطر مقيم، خطر أن تدوسه سيارة مارة بمنتهى السرعة. كان يحاول إنقاذ نفسه من خطر الانتقال إلى مساحة الحتف في أقل من لمح البصر، لكنه لا يقوى على النهوض، يريد أن يصرخ، لا يقوى على الصراخ، يريد أن يحرك يديه للقيام بإشارة واحدة، كي يستنجد فينقذُ، لا يقوى على الحركة، وقوافل السيارات كانت لا محالة قادمة... تخيلوا ما آل إليه الممددُ، مُغْمى عليه على الطريق، وقد غالبهُ الدوارُ والوهن: لقد دهسته

عجلات سيارة قادمة بسرعة الفيافي، فأحالته خلالَ بضع ثوانٍ إلى جثة هامدة شبه ملتصقة بالطريق المُعَبَّدِ... حالي الآن يشبه حال من كان ممددا على الطريق قبل أن تضع السيارة المسرعة حدّاً لحياته، بل أنا الآن هو صاحب الجثة لمَّا كان ملقى فوق الطريق. ما يفرق بيننا إلا عتبة وجود واحدة في منتهى الصِّغَر: كانت نهاية احتضاره رهينة بسيارة يسوقها سائق شارد أو قليل الانتباه، والسيارة كانت لا محالة آتية في وقتٍ قصير، إلا أن احتمال أن يكون سائقها شاردا أو ساهيا أمرا كان غير مستقر كرقاص السَّاعة. أما نهاية احتضاري بأقل قدر من الألم فرهينة بوُصُولي إلى خرتوشة الرَّصَاص، وتسديد طلقة أخرى إلى رأسي حالا. بل لا فرق بيننا. أنا هو وهو أنا. فكونه مات بعد أن داسته سيارة في وقت وجيز يعادل وصولي إلى الخرتوشة وإطلاق الرصاصة على رأسي. ولو لم يمت إلا بعد وقت طويل، بعد أن لم يدُسْهُ السَّائق الشارد، وبعد أن نودي على سيارة إسعاف أبطأت في الوصول، ولما وَصَلَتْ حملته، لكنها ما بلغت منتصف الطريق حتى كانت روح الجريح قد زهقت. أنا الآن هو وقد فشلتُ في الوصول إلى الخرتوشة، وخارتْ قواي وتمددتُ فوق الأرض طريحا أحتضر وحيدا، فلا تزهق روحي إلا بعد مضي سنين من الاحتضار والزُّزُوحِ تحت الآلام الطويلة القاسية. ألا ما أشبه سُبُل موت الأحياء رغم تباين طرق موتهم وأسبابها!

أما الإحساس الثاني فهو الرغبة في رفع هذا الألم الذي يجتاحني بسلوك سبيل المحو السَّريع بإطلاق رَصَاصَة أخرى. رصاصة واحدة في

الرأس وينتهي كل شيء. لكن هيهات لك أن تقوى الآن على ذلك يا أحمد. فأنت لم تملأ زند البندقية سوى برصاصة واحدة، وعلبة الخرتوشات تركتها بعيدة عنك ببضعة أمتار. هاهي قبالتك كأنها تناديك: «أنا خلاصك، لكنني أنا الأخرى عاجزة عن المجيء إليك، هيا استمسك، وقف، ثم خذ مني ما شئت من الرصاصات»... أسْتَمْسِكُ، وأهُمُّ بالوقوف، لكنني لا أقوى على الوقوف؛ رجلاي شبه مشلولتين، ويداي مشدودتان على البطن، تحاولان لأيا تخفيف الألم، وأنا شبه جالس، تمدَّدَتْ قصبتا ساقيَّ لتتحولا إلى دعامة لإسناد فخذيَّ اللذين نزل عليهما أعلى الجسد بكل ثقله. بيني وبين الخلاص مجهود الوقوف والمشي حوالي مترين على القدم، لا أقوى على فعل ذلك. ومما يقوي من عجزي كوني أحرص حرصا شديدا على عدم سقوط البندقية. فلو سقطت على مبعدة مني لكلفني استرجاعها مجهودا لا طاقة لي به، ولذلك عضضت على منتصفها بالأسنان. ألا ما أضعف الإنسان لحظة انقضاض الموت عليه! لا يقوى على زحزحة نملة من مكانها. أحسُّ بغبنٍ شديد. أتساءل: «هل كان بوسعي أن أفعل غير ما فعلته؟»، لا أجد لهذا السؤال أي معنى، لأنني لو كنتُ سدَّدتُ الطلقة صوب رأسي لحظة كنتُ مِلْكا لنفسي، لحظة كنت ذي قوة وإرادةٍ، لو فعلتُ ذلك لما كان هذا الذي أفكر فيه الآن، بل لكنتُ امَّحَيْتُ أصلاً... يتوارى الندم أمام الإشراقة التالية التي انبجستْ من غمرة الألم وفورة الدماء: للموت فخاخ وشراك يلقي بها في كل لحظةٍ في طرق الأحياء ودروبهم

ومسالكهم، لكن قلما يفطن المرء إليها كي يتجنبها، لا يفطن إليها المرء في الغالب إلا عندما يكون طريحا يحتضر إثر مباغتة الموت إياه...

الألم يعصرني، ابتل قميصي وسروالي بدمائي، ارتسمت بقعة كبيرة تحت قدميّ. أحاول أن أستمسك كي أقف وأتحرك نحو البندقية لأسدد طلقة واحدة، لا أقوى على الحركة. أجهد نفسي على الوقوف. أقف. لا تقوى قدماي على حمل جسدي. أجهدهما على حمله. أشد بيدي معا على الحائط كي أخفف من وطأة ثقل أعلى البدن على القدمين. أخطو خطوة. لكنني أنهار، وأسقط متأوها. ارتسمت في الجدار بقع دمٍ خلفتها به يدَيَّ واحتكاك صدري به. بيَّ دوَّارٌ شديد. الألم يعصرني. مكثتُ لم أدري كم من وقتٍ، ثم استمسكتُ. أجهدتُ نفسي على الوقوف. وقفتُ. لم تقوى قدماي على حمل جسدي. أجهدتهما على حمله بشد يديَّ معا على الحائط. خطوتُ خطوةً وأنا شبه ملتصق بالحائط. لكنني ما وضَعتُ إحدى قدمَيَّ على بعد خطوةٍ حتى هوت القدم الأخرى تحت ثقل الجسد. سقطتُ على الأرض متأوها. انضافت لطخة دمٍ كبرى في الحائط بجوار اللطخة الأولى، وفوق اللطخة ارتسمت بصمات كفَّيَّ معا. يلزمني التفكير مليا كي أختصر طريق الوصول إلى الخرتوشة الملقاة وسط الغرفة: أي السبيلين أقصر؟ القيام بنصف دورة على الغرفة ملتصقا بالحائط إلى أن أصل أقرب نقطة فاصلة بين الحائط وبين الخرتوشة، ثم أباشر الدب على المرفقين والركبتين أم أقصد الخرتوشة رأسا سالكا طريق

الخط المستقيم؟ إن أختر السبيل الثاني فلن يكون بيني وبين الهدف إلا حوالي ثلاثة أمتار، وإن اختر السبيل الثاني، سبيل القيام بنصف دورة على الغرفة ملتصقا بالجدار فيكون عَلَيَّ أن أعبر حوالي عشرة أمتار. الطريق المستقيم أقصر وأسهل يا أحمد. لكن من ضمن لك القدرة على الوصول إليه؟ فقد لا يقوى مرفقاك وركبتاك على حمل جسدك أكثر من مسافة ربع متر واحد، فيُشَلاَّن، ويهوى بطنك المخروم على الأرض، فما أن يقع التَّمَاسُّ بين غلاف أحشائك وصفحة الأرض حتَّى يصير يتضاعف ألم الأحشاء أضعافا مضاعفة وتفقد القدرة على معاودة أي حركة، وتمكث بالتالي ساعات طويلة تحتضر في النقطة التي سقطتَ فيها والحال أنك تروم وضع حدٍّ لما تبقى من حياتك في رمشة عين. بخلاف ذلك، إذا اخترتَ القيام بنصف دورة على الغرفة، فإنه يكون لك فرصة تَجَنُّب احتكاك البطن بالحائط، عن طريق إسناد الجسد على القدمين، وكلما شُلَّت القدمان «قعَدتَ» قليلا، واستجمعت أنفاسك أو قدرا من القوة ثم عاودت الكرَّة من جديد. هكذا اخترتُ الخُطَّةَ الثانيةَ.

لا أستطيع تقدير كم وَقتٍ زمنيٍّ قضيته في «المشي» وأنا أشُدُّ بكلتا يدي على الجدار، و«أصبغه» بدمائي، لكن زمن الموت لا صلة له إطلاقا بزمن الحياة. زمن الحياة خارجي. أما زمن الموت فباطني لأنه من أحاسيس الألم والغبن والحنَق يتشكل فيأخذ هيأة تفوق بأضعاف مضاعفة زمن الحياة والأحياء، ولذلك فمقدار ربع ساعة يقضيه المرء

محتضرا يئن تحت جرح خطير أو مرض عضال يعادل يوما يقضيه المرء نفسه في صحة وسعادة وهناء. وإن لم يكن بدٌّ من تقدير المدة التي قضيتها بين خطو كل خطوة وأخرى مع ما كان يفصل بينهما من انحناء لاستجماع النفس والقوة فإني أقدِّرُ أني قضيتُ حوالي ربع ساعة في خطو كلِّ خطوة. نعم قضيتُ شهرا، بزمن الأحياء، في المشي متمسكا بالحائط كي أصل إلى خرتوشة البندقية. آثرتُ ذلك لأنه كان أهون من قضاء سنة أو أكثر وأنا أحتضر ملقى على بطني فوق الأرض لو اخترتُ الطريق الثاني، طريق الزحف على الركبتين والمرفقين.

لما وصلتُ إلى أقرب نقطة بمحاذاة الحائط قبالة الخرتوشة كان حوالي سطل من الدماء قد تسرَّبَ من ثقبتي بطني وظهري وكانت جوانب الجدران وصفحتها قد امتلأت ببقع ولطخ دمائي. كأنني صبغتُ الحائط بدمي. بأسفل الجدران ارتسمت بقع أخرى، تكونت منها شبه جداول ووديان تصب في الزربية التي توسطت الغرفة. لم يمنع تسرب الدماء كوني كنتُ أشُدُّ على الثقبين بكلتي يدَيَّ لِيَلاَّ يتسرب القدر الكافي من السائل الأحمر لإسقاطي قبل أن أصل إلى الخرتوشة... ما إن أيقنتُ أني على مقربة من الهدف حتَّى استجمعتُ أنفاسي وَقُوَّتِي، لم أستطع مواصلة السير. تمدَّدْتُ على جنبي ثمَّ مدَدتُ رجلَيَّ بأقصى ما أوتيتُ من مجهود وشرعتُ في تحريكهما كأني أكنس بهما صفحة الأرض كي أجذب الخرتوشة. لم أستطع. لو أن قضيبا أو مكنسة أو أي أداة منزلية أخرى بمتناول يدي كي أجذب بها الخرتوشة. تمددت على جنبي،

ثم جعلتُ ذراعي بمحاذاة جنبي جسدي كأنهما صليبين، والأمر نفسه فعلته برجلي. استجمعتُ الأنفاس، والقوة، ثم تدحرجتُ بمنتهى القوة نحو الخرتوشة. أخيرا وصلتُ إليها. لم تقو يدي على فتح زناد البندقية كي أدس فيها الرصاصة. جاهدتُ نفسي، لم أستطع، استعنتُ على ذلك بأسناني. جلستُ فوق كرسي، وضعتُ فوهة البندقية بين عيني، ثم سمعتُ الطَّاق، وتبدَّدَ الإحساس بداخلي، بعيون المتخلفين بعدي رأيتُ الوضع الذي صرتُ عليه: الدماغ أشلاء مبعثرة فوق صفحة الغرفة، أجزاء من لحم الرأس والدماغ التصقت بسقف الغرفة. دماء كثيرة غمرت كل جزء من أجزاء الغرفة، لأنني قبل أن تزهق مني الروح كنتُ تخبَّطْتُ كما يتخبط الكبش الذبيح قبل أن يتحول إلى جثة هامدة.

لغة الأعضاء

سُمِع دقّ كثيرٌ في الباب، أنا جالسٌ قرب زوجتي، متكئ على أريكة البهو المقابل لمدخل المنزل، تزايد الطّرق، اصطنعت ربة البيتِ الهدوء، لفتت انتباهي إلى الخبط المتوالي، لكن لانشغالي بخصومة معها، فقد رفضتُ استقبال أي زائر. انفتح البابُ وَحده، تراءى لي من نصفه المشرَع حشدٌ من البَشَر؛ جماعة من الرِّجَال والنساء تبينت منهم أقارب لها. ولأنني رجلٌ ذو مزاج لا يقبل الحلول الوُسْطَى ولا تجزيئا للمشاكل ولا تفريدا للأفراد، فقد ماهيتُ الزوار مع ربة البيت. لم أقُمْ لاستقبال أي كان. اجتهدوا في إيجاد سبيلٍ لتجاوز الإهانة التي «ألحقتها» بهم من خلال تجاهلي إياهم؛ افتعلوا الاختصام؛ ها هم يتبادلون كلمات متفاوتة الخشونة، يتشادُّونَ بالأيدي، يتدافعون، يصطنعون زحاما لا يزيدهم إلا بعدا عن مدخل البيت. ابتعدوا عن الباب قليلا. بعضهم يَشْزُرُنِي بنظرة غريبة. تسمَّرت عيناني في عيني أكثر من واحد منهم. وها أنذا أجدُ نفسي وسط ما يشبه كابوس، طريح الفراش، في الهزيع الأخير من الليل، داخل غرفة دامسة. تكادُ أنفاسي تنقطَّعُ. تجتاحني حرارة مفرطة. يفيض بداخلي ذبيبٌ عرمرمٌ مجتاحا

جسمي قاطبة؛ يسري في الأوعية والأعصاب والعظام، يتسرب إلى الداخل بكل شقوقه ومخابئه وتجاويفه ونتوءاته، مخي الآن يحترق. شبهُ نورٍ خافتٍ يَنزل فوق السَّرير مُكوِّنا هالة كأنها قبة من نور. أريد أن أصرخ، لا أقوى على الصُّراخ. أريد أن أحرّك أي طرف من جسدي، لا أقوى على الحراك، أئن بأقوى ما أوتيتُ من قوَّة، لا تلتقط أذني إلا صمتا رهيبا؛ فقد استحال الداخلُ فيَّ إلى فضاء رحب يبتلع كل صرخة أو أنَّة وصداهما، كأنني صرت الآن بئرا موغلة العمق. أشعر بغبن شديد، أدركُ بيقين لا يقبل أي دحض أنني الآن إلى الموت مُسَاقٌ. أحسّ بأنامل كف توضع على شفتي السفلى وبأصابع أخرى تندسّ تحت رأسي لتسنده. أجهِدُ عينيَّ على الانفتاح، تنفتحان بالكاد. أرى رأسَيْ شبحين أحدهما عن يميني والآخر عن يساري. تتكلم امرأتان، لا ألتقط من كلامهما إلا صوت المرأة التي عن يميني: إنها أمي. تقول: «كأنَّ شفتيه قطعتا ثلجٍ. الله، ثم الله، ابني مسكين يموت! ابني يموت..»، يتكرر هذا الكلام مرات بصوت مَزّقه قرب الفقدان. لا ألتقط من المرأة الجالسة عن يساري سوى ترنح ونحيب، بكاء خافت. عرفتُ من هي: إنها زوجتي. زوجتي وحدها هي التي حَرصَتْ منذ مرضتُ على إظهار رباطة جأش نادرة، على عدم إبداء أي انكسار أمامي. ظلت مستمسكة كأنها قطعة فولاذ، وكلما كلمتها في المرض استصغرَته واحتقرَته، ثم اصطنعَت حيلة لتغيير مجرى الحديث إلى آفاق أخرى. تلك كانت طريقتها في الحرص على عدم دفعي إلى الانهيار، وهي طريقة

كانت صائبة دون شكّ، إذ لولاها لكنتُ انتقلتُ إلى إقامة الموتى منذ أربع سنوات على الأقل؛ فأمام مرضٍ عُضال، كالذي أعاني منه الآن، ليس بوسع المرء أن يفعل أي شيء آخر عدا الرّكون إلى أحد تصرفين متناقضين: فإما يؤمن بقوة المرض، يستسلم له، يقتنع بطابعه القدريّ، فينهار أمامه، يقول: «لم يبق لي في الحياة إلا أشهر معدودة...»، فيعد عدة الرحيل، يصفي ممتلكاته، ثم يجهز سرير الاحتضار، وذلك ما يحدث له بالفعل، إذ ما يمضي ردح من الزمن حتَّى يجد نفسه بالفعل طريح الفراش، ويدخل سيرورة الموت الفعلي. أو (وهذا هو التصرف الثاني) يأخذ مرضه مأخذ جدّ دون أن يأخذه مأخذ جد، بمعنى أنه يعرف أنه إن يواصِلْ التصرف على نحو ما تصرف به إلى حدود معرفة مرضه، ينقضّ عليه الداء، ولذلك تراه (المرء) يواجه المصير القدري الذي يرتسم أمامه بإرادة للحياة تفوق كل إرادة، يواجهه برغبة في البقاء، فيتخذ من المرض مناسبة لمراجعة أسلوب حياته، لاكتساب عادات جديدة، مبتكرا بذلك حظوظا للبقاء، حظوظا للشفاء. وفي المسلك الثاني اختارت زوجتي الزَّجَّ بي منذ هوى علينا خبرُ المرض كالصاعقة...

يتواصلُ الصَّوتُ الممزَّق والبكاء الخافت، كأني الآن بصدد الإنصات إلى أغنية حزينة منكسرة ما يوقعها إلا الترنحُ والبكاء. أتمزق أنا الآخر في أعماقي إشفاقا عليهما، أحاول القيامَ بأيِّ حركة، النطقَ بأي كلمة، كي أتظاهر بأنني لم أصل بعدُ إلى طور الاحتضار، بأنني لا

زلتُ حيا، بأنني سأبقى حيا... لا أقوى على فعل أي شيء، أدرك أن الانقضاض عليَّ قد تمَّ فعلا، وأن جثتي الآن لا تعدو مجرد فريسة في يد هذا الكائن الجبار الذي يدعوه الأحياء موتا.

يتوارى الكابوس والحلم، يشرق الواقعُ بكل مرارته؛ يدخل أهلُ الزوجة إلى الغرفة، يحيطون بالسَّرير، أفطن إلى أنّهم لم يأتوا صدفة، لم يأتوا لإصلاح ذات بينٍ بيني وبينها كما خيِّلَ إليَّ قبل قليل، بل جاؤوا خصيصا لحضور جنازتي؛ أنا الآن أحتضرُ، ولعلم ربة البيت بقرب موتي فقد أخبرت آلها، فجاؤوا من مدنٍ بعيدة خصيصا لحضور موتي وتشييع جنازتي. تصْرف إحدى المرأتين الجماعة، ينتهي إلى أذني وقع أقدام وغمغمات، من الغرفة المجاورة لغرفة نومي أسمع جلبة أخرى.

أنا الآن ماضٍ إلى حتفي. جسدي انهار بحيث لم أعد أقوى على القيام بأدنى حركة، ولكن ذهني في توقد ويقظة وتركيز لم أعهدهما طوال حياتي، منشغلٌ بالتفكير في أمور عديدة جدا ما الفلسفة أمامها سوى ضرب من السفسطة والاستمناء بالعقل. أتمزَّق حسرة على عدم قدرتي على موافاة الحضور بما يعتمل في ذهني، بالحقائق المشرقة الآن في عقلي، أريد أن أقول لهم أشياء عديدة، لا أقوى على قول أي شيء، أتمزق حسرة، أريد فقط أن أنهاهم عن الانكسار حسرة على فقداني. يا معشر الناس. للحياة برازخ، أنا الآن في أحدها. أعجبُ كيف نقنع من الحياة بكل ما تمنحنا إياه، بالنصيب الذي تخصنا به، جميلا كان هذا

النصيب أم قبيحا. أعجبُ من تنوّع درجات إدراك الحياة والإحساس بها، من كوننا نظل متعلقين بها ملتصقين بها رغم انقلابها علينا؛ فعندما كنتُ في صحة جيدة، كان يعسر عليَّ تصوُّر قبول الاستمرار في العيش إذا ما انقلبت عليَّ الحياة في يوم من الأيام؛ كنتُ أقول: «إنْ يصبني عمى أو شللٌ أو سرطانٌ يجبرني على القعود في الفراش أضَع على الفور حدا لحياتي»... لكن ها أنذا الآن مقعدٌ، طريح الفراش، على مشارف الموت ومع ذلك أقبل البقاء على هذه الحال، أقبل أن أكون فريسة للموت تاركا له أمر الانقضاض عليَّ متى شاء، كأنه بانقضاضه ذاك سيرحمني، كأن انقضاضه علي رحمة أو شفقةَ... وأنا الذي كان بوسعي الانقضاض عليه يوم كنتُ أقوى على المشي والوقوف واتخاذ قرار وضع حد لحياتي... أكثر من ذلك، قبلتُ قضاء سنوات خمس في التنقل بين مباني المختبرات وأسرة المستشفيات وابتلاع جبال من الأدوية وتلقي مثلها من الحقن في سبيل شفاءٍ وهميّ إلى أن يئس الأطباء من شفائي، نفضوا أياديهم مني، وأمسكوا عني كل دواء، وأحالوني على البيت لألازمه إلى أن يحين أجلي. أفطن إلى أنني لستُ في ذلك إلا أسير الشرط البشري، وأنَّ حالتي لا تشكل أي استثناء. فالمرءُ يعيش ردحا من الزمن في صحَّة جيدة، ثم يفقد ذات يوم بعضا من أعضائه، فيجد نفسه بين عشية وضحاها قد صار أعمى أو مقطوع اليدين أو الرجلين أو هما معا، وبدل أن يثور على قسوة الحياة بأن يضع على الفور حدا لوجوده، تراه يقنع بشرطه الوجودي الجديد،

ويُجَند مجهوداته قاطبة للتكيف مع الكائن الجديد الذي صيرته الحياة إياه، فيضاعف حواسّ اللمس والشمّ والسّمع، ويَقبلُ أن يستمر في الحياة مُشكلا عبئا على الآخرين، يقبل أن يتولوا مدَّ فمه بلقمات الطعام، وتغيير ملابسه، وغسل جسده، وحمله يوميا، كما لو كان صبيا، لقضاء أكثر حاجياته البيولوجية أولية، كالتبول والتبرز...

شريطُ حياتي يمرُّ أمامي. تنقلني الآلام المبرحة إلى أيام كنتُ أبذر حياتي تبذيرا، بدون حساب ولا تقتير، بكرم لا يضاهيه أي كرم، في ليالي سُكر طوال، في إدمان التدخين واحتساء القهوة السوداء، وسهر ليالي ما كان يؤذن بانتهائها إلا اشتعال قرص الشمس في كبد السماء... الخطأ خطئي. فقد أنذرني المرض من قبل، لكنني لم آخذ إنذاره مأخذ جد. لو كنتُ أقلعتُ عن التدخين واحتساء الرحيق والبن لما وصلتُ إلى ما أنا عليه الآن... أتساءل بدون توقف: هل كان بوسعي القيام بغير ما قمتُ به؟ ما معنى ما حدث؟ ما معنى أن المرض زارني، وأوجعني ردحا من الزمن، ثم اختبأ في الجسد، فعشتُ متوهما أني سليم، لكن الداء كان ينخرني من الداخل؟ أي شيء كان الوَهنُ يفعله، وهو في طور الكمون، إلى أن انقلب إلى هذا الورم المتوحش الذي على إثره أنا الآن طريح الفراش؟ بالنظر إلى حالتي المزرية في هذه اللحظة، يمكن القول إن كوني الآن طريح الفراش، أتمزق ألما، كوني على مشارف الموت هو المكافأة التي نالها المرضُ مُقابلَ ما أبان عنه من صبر وأناةٍ طوال المدة التي كنتُ فيها «سليم البنية»، لكن أيضا مقابل كده واجتهاده للإطاحة

بجسدي، فكان له ذلك. أتخيَّل المرَضَ لم يصبر ولم يجتهد في الإطاحة بي، أتساءل: كيف كان سيكون الوضع؟ كنتُ سأرقى إلى مصاف الآلهة، كنتُ سألج الخلود. من هذه الزاوية يمكن اعتبار المرض والموت تعبيرا عن رفضٍ مَّا، صادر عن جهة مَّا، لنصيرَ نحن معشر بني الإنسان خالدين. خلدُنا يُقلقهم. بأي وجهٍ يقلقهم؟ لستُ أدري!!

أتخيَّل الكرة الأرضية برمتها لا تعْدُو مجرَّد عُضوٍ صغير داخل جسدٍ أكبر سيستحيل علينا إلى الأبد معرفة ما هو وما هي حدُوده، كأن الأرض طحالي أو إحدى كليتيَّ. أنتِ يا حنجرة، وأنت يا رئة، أنتما اللتان تمزقاني الآن ألما من الداخل، أتعرفان أنكما مجرد عضوين في جسدي؟ أنني أكبر منكما؟ أنني لا أتكون منكما فحسب، بل ومن أعضاء عديدة أخر؟ أعرف ذلك حق المعرفة، لكنني لا أعرف مَا يروج بداخلكما؛ لا أعرف - ولن أعرف إطلاقا - ما إذا كنتما تعقلان أم لا. نعم، لقد تواصلنا من قبل كثيرا، غير أنَّ «التواصل» بيننا لم يتم دائما إلا بإرسالكما لي «إشارات» الآن فقط أدرك أنها كانت بمثابة ضوء أحمر (هو الوجع أو الألم) ينذرني إنذارا... لم يكن في إمكاني أن أستجيب لإنذاراتكما المتكررة إلا بأحد تصرفين:

إما أفهم تلك الإنذارات، آخذها مأخذ جد، أستجيب لها، فأقلع عن فرط التدخين واحتساء الرحيق والبن، أكف عن تبذير الجسد في ليالي السهر الطوال، آكل جيدا وأنام جيدا، آخذ أقساط وافرة من

الراحة، أتصرف كما تتصرف تلك الجثث التي كان أصحابها من وراء مكاتب العيادات وشبّاكات الصيدليات ينظرون إليَّ، أنا الجسدُ العليلُ الذي هرم قبل الأوان، بأجساد تفيض حيوية وعيون ناصعة البياض والسَّواد، تكاد تطير من محاجرها حيوية، أجساد كدتُ أنسبها إلى الخلود لولا أنني فطنتُ دوما إلى أنها إلى نفق الموت الذي أقيم فيه الآن آيلة طال الزمن أو قصر. وهذا التصرف فاتني إلى الأبد لأنني الآن إلى الموت مُسَاق. للمرء مواعد كثر مع الموت، من يصب موعده يساق إلى مقام الموتى، ومن يخطئه ينتظر حينا ثم يُساق. وبوصلتي الباطنية أنبأتني أنَّ موتي يستعجل لقائي لفرط ما أخلفته من مواعيد...

أو لا أستجيب له، أستخف به، لا آخذه مأخذ جد، فأفعل كأن شيئا لم يحصل، وذلك ما فعلته، وها أنتما الآن «تنتقمان» مني، بإيلامي وإلزامي الفراش ووضعي على مشارف الموت. الآن فقط أدركتُ، وبعد فوات الأوان، أنَّ الصَّمم الذي واجهتُ به دوما رسائلكما هو الأصلُ في ألمي الحالي، هو ما أنضجَ و«هيَّج» تلك الآلام الصغيرة التي تجاهلتها على الدوام إلى أن اجتمعتْ فاتحدتْ واحتشدَتْ جاعلة من نفسها جيشا عاتيا قادرا على الانعطاف بي إلى المنعطف الآخر، إلى الموت الذي اجتزتُ الآن أطوار منه: المرض الأولي، استفحال المرض، إلى ملازمة الفراش، فالاحتضار، فمغادرة الحياة. هذا التصرف هو ما فعلته، وها أنتما الآن تنتقمان مني بإيلامي وإلزامي الفراش ووضعي على مشارف الموت.

*

*　　*

شريطُ التطبيب يمرّ أمامي، ينتابني الهلع مما جُنِّد لإنقاذ هذا الجسد العليل دون جدوى: أسرَّة مستشفيات، أيادي أطباء، خدماتُ ممرضاتٍ، جبالُ حُقن وأقراص، علاجات كيماوية... ومع ذلك، فها أنذا في نفق الموت أقيم.

أتذكَّر مرضى القرون الخالية، الذين حصدتهم أمراضٌ صار لها الآن علاج، ينتابني إحساسٌ كبير بالغبن لكوني سأموت من مرضٍ سيتوصَّل الطبُّ حتما إلى إيجاد علاج له. أتخيل أنني مِت، وما مضى وقت قصيرٌ جدا حتى صار المرض الذي اغتالني مُجرد مرضٍ بسيطٍ لا يتطلب علاجه أكثر من حقنتين أو علبة أقراص. يا معشر الناس. إني الآن، وإن كنتُ أقيم بينكم وأنتمي إلى زمنكم، فقد جَعَل مني الوهنُ والكسَلُ الذي يوجدُ عليه الطبّ حاليا مَريضَ جُذريٍّ أو زُهَريٍّ في القرن الماضي أقيمُ.

ينتابني حنق كبير على المؤسسة الطبية الراهنة، لا أرى في عجزها عن مداواتي سوى مظهر لكسل الإنسان الحالي وعماه عن الرؤية الواضحة. اصحُ يا طبيب. دَواءُ دائي أمامكم، يناديكم بالأصابع مشيرا إليكم أن «ها أنذا»، وأنتم عنه غافلون، لا ترونه ولا تسمعون نداءَه، ويوم ستسمعون هذا النداء زاعمينَ أنكم قد اكتشفتم أخيرا

دواء ما أودى بحياتي وحياة الكثيرين من المرضى أمثالي، ستضحكون على أنفسكم، ستستخفون منكم، من بلادتكم وقصر نظركم. نعم، ستفعلون ذلك وكلكم في الإحساس بالذنب غريق، لأن للموتى المغبونين الذين كان بالإمكان إنقاذهم أصواتٌ وترنحاتٌ لا تنقطع رغم انقطاعهم عن الحياة. ستحاصركم أصواتُ الموتى المغبونين، ستدوي بدواخلكم كما تدوي الآن بداخلي لفرط ما انسدل من الحُجُب بيني وبينها. يا معشر لأطباء. لكل داءٍ دواء، ولكل دواء نداء، لكن لا يسمع هذا الضرب من النداءات إلا العباقرة، لأنَّ العباقرة قومٌ يستبقون زمنهم ويغرفون من مياه هي عادية جدا في زمنها، لكنها تكون - أو تبدو بالأحرى - بعيدة جدا في الأزمنة السَّابقة لها. كل جديد مآله القِدم. مهما يبلغ من الجدة ما يكتشفه المرءُ وينال عنه لقب «عبقري»، فهو سيصير عاديا في يوم ما...

تلاشى بداخلي إحساسُ الغبن، حلت محله مشاعر الشفقة على الجسد الطبي. الشفقة، لأن للطبيعة في الجهة الأخرى مهام لا تنقطع: أمراضٌ تختفي وأخرى تظهر، مسعى سيزيفي هذا الذي يسلكه الإنسانُ مع المرض!. ليس الطب العصري، في نهاية المطاف، سوى تعبير عن رغبة في دَمقرطة الحياة: دمقرطة الحياة بمعنى منح أكبر عدد من الناس فرصة للبقاء على قدم المساواة، والحيلولة بينهم وبين الموت غير الطبيعي، بينهم وبين الموت المبكر والمفاجئ. غير أن هذه الرغبة تخالف ناموس الطبيعة الذي اشتغل منذ العصور السحيقة إلى ظهور

هذا الطب الذي ينعت نفسه بالـ «عصري»، والذي لا يكف بني البشر عن التصفيق له والإشادة بما حققه متمثلا في تمديد متوسط العمر، وتقليص عدد الوفيات من خلال القضاء على أوبئة قاتلةٍ يا ما قتلت، في الماضي، ملايين الأرواح البشرية دفعة واحدَة: الطَّاعون، الجذري، الملاريا، الكوليرا، الخ. نعم، كان من نتائج هذه الديمقراطية أن تضاعف عدد سكان الكرة الأرضية بمئات المرات، ربما بحجم لم تعرفه البشرية منذ «ظهورها» حتى اليوم، بسبب عدد اللقاحات الإجبارية، والمتابعة الطبية، الخ. لكن هل هذا التضاعف تحقيقٌ لتلك الرغبة؟ إنَّ قانون الطبيعة الأول، وهو البقاء للأقوى والانتخاب الطبيعي، هو السائد حتّى اليوم. ومن مظاهر سيادته كون عددٍ كبير من الأمراض لم يتم التغلب عليها بعد؛ فمرض الزهايمر يقعد حاليا 350 ألف شخص في فرنسا وحدها، والسّرطان وحده يحصد ستة عشر ألف روح سنويا في كل دولة، والسُّل يسوق من سكان المعمور مائة ألف شخص سنويا إلى المقبرة، ناهيك عن السِّيدَا وأمراض أخَر...

بهذا المعنى يكون مسعى الطب العصري هو منح الحياة لفاقدها أصلا. إنه يجعل أناسا يعيشون رغم أنفهم ورغم أنف الطبيعة، يمدد حياتهم بينما هم في الأصل موتى. تشرق في ذهني الحقيقة التالية: لقد مرضتُ لأنني غير صالح للبقاء، لأن الطبيعة صفَّتْنِي تصفية منذ ولادتي. كان لي موعدٌ مع الموت منذ ولدتُ، كان موتي مقررا في الطفولة المبكرة جدا، وما أطال عمري إلا عدد اللقاحات التي أجريت

لي، وتردُّدي على الأطباء لمعالجة الأمراض التي كانت من الإيجاع بحيث أجبرتني على الاستنجاد بهم إلى أن حَلَّ بي المرض اللعين الذي يقف أمامه الطبيبُ في هذه المرة جامدا عاجزا. أتخيلني مِتُّ مُنذ ولدتُ، منذ كان عمري بضعة أشهر أو بضع سنين، أتساءل: ما معنى الأعوام التي فصلت بين موتي المخْطَأ، موتي الذي كان مُبرمَجا من قبل لكنه لم يتحقق بسبب تدخلات الأطباء، وموتي المحقَّق، موتي المقرَّر الآن، والذي يبدو أن أمر الحسم فيه قد تم بما لا رجعة فيه؟ ما تلك الأعوام إلا فائض حياتي، هبة حياتية كبرى حظيتُ بها. يتوارى الغبنُ، أقبلُ أن أموت، أقبل موتي بصدر رحب، أقبله بشوق، أفطن إلى أنني إن أمت يُنزَع عني الإحساس بحيث أحرم حتَّى من طعم نشوة اللقاء بموضوع شوقي. أتمزَّقُ، حتَّى من معرفة أنِّي متُّ وبالتالي تخلصتُ من الآلام المبرحة التي تقطعني الآن أطرافا. أتشظَّى حسرة.

*

*　　*

مخطئٌ الخطأ كله من يعتقد أنَّ مُقعَدَ المرض يكون في وحدة قاتلة. ومُقعَد المرض هو المرء الذي تمزقه آلام مبرحة - كالتي تمزقني الآن - بحيث تمنعه حتَّى من ترجمة تألمه بلغة الأنين، فأحرى أن يتواصل مَعَ الآخرين أو يستجيب لمطالب الجسم الأكثر أولية، كالأكل والنوم. ففي ملازمة الفراش يتحقق اللقاء الأكبر مع الذات. لكل امرئ

موعدُ لقاءٍ مع نفسه، وهذا اللقاء لا يتمّ إلا في مقامين: مقام المرض، ومقام الاحتضار.

لقاءُ المرض يتفاوت بتفاوت الأمراض، ذلك أن أدنى ألم يصيب عضوا ما من أعضاء الإنسان ما هو إلا نسخة (version) من اللقاء الفعلي لهذا الإنسان نفسه مع الموت الذي ما البشر سوى كائناتٍ منذورة له. وأشدُّ الناس لقاء بأنفسهم الأطفالُ الصغارُ، ذلك أنَّ هشاشة صحتهم تجعلهم مُعرَّضين للأمراض على الدوام، وفي كل مرض يتحقق اختلاءٌ بالنفس وإنصاتٌ لها. وبذلك لا يمكن تفسير غياب كلام الطفل منذ الولادة (مرحلة ما قبل الكلام) إلا باعتباره انشغالا بالنفس، اقترانا بين الرُّوح والجسد. لكن المجتمع يتدخَّل باللغة والضابط، فيُحْدِثُ شروخا بين المرء ونفسه، شروخا تزداد بتوغل الفرد في الكبر... آه الآن فقط أفطن إلى أنني لم أعش دوما إلا خارج نفسي، كنتُ أتوهم أنني في صحة جيدة، وكلما كان المرءُ سليمَ البنية لف جسده برداءٍ من النسيان... بهذا المعنى، فالمرضُ عودة إلى الطفولة، ولحظة الموت تعادلُ لحظة الولادة. أنا الآن لن أمُوت، سأولد من جديد، أستعجل موتي بفارغ الصبر، أنا الآن أحتضر، وفي احتضاري لقائي بنفسي التي افتقدتها دوما أو أجبرتُ بالأحرى دائما على افتقادها.

*

*   *

أوَّلُ ما خطر بذهني، لما أخبرني الطبيب بطبيعة مرضي، بالضربة القدرية التي تنتظرني، أنْ أضعَ حدًّا لحياتي. لكنني (والآن فقط أفطن لذلك) كنتُ جبانا، ولذلك عوض أن ألقي بنفسي من سطح عمارة أو أبتلع أدوية قاتلة تشبثتُّ بأمل وهميٍّ في الشفاء: سعيتُ إلى عقد صلح مع الجسد. واليوم عندما أقارن بين السبيلين لا أنتهي إلا لكونهما في العمق متشابهين؛ سواءٌ أأضع حدًّا لحياتي أو أسعى إلى العلاج، فكلا التصرفين لقاءٌ مع الجسد لأول مرة. نعم، في ما وراء اختلاف النوايا والغايات الكامنة وراء اللقائين فهما يظلان متشابهين:

التقيتُ بجسدي لأول مرة آملا أن أعقد شبه صلح معه، وكنتُ أرمي من وراء ذلك اللقاء إلى استعادة القوة، إلى التخلص من المرض، إلى الاستمرار على قيد الحياة. تمَّ كل شيء كأنني كنتُ أرى جسدي يُعذبني، يُعَاقبني على القطيعة التي أرسيتها معه من قبل، على الإهانة التي ألحقتها به عندما لم أستجب للإنذارات المتكررة التي وجَّهها إليَّ قبل أن يُجبرَني على ملازمة الفراش.

ليس مرضي الحالي إلا ردّ إهانة بأخرى؛ فقد أهنتُ جسدي من قبل، وها هو الآن يهينني: أهنته عندما كنتُ آكل وأشرب وأدخن وأسهر وأحتسي القهوة بإفراطٍ دون أن أكترث لما قد يترتب عن ذلك كله من متاعب: كنتُ أُراكِمُ «الإساءة» إلى عضو أو عدة أعضاء مني عبر مدِّها

بما لا تطيقه، أو إكراهها على قبول ما لا تقبله.. كنتُ أنعَمُ - أو كانَ يُخَيّلَ إليَّ أنني كنتُ أنعم - بالصِّحَّة فيما كان جسدي يَرْزَحُ تدريجيا تحت المَرَض إلى أن أخذ هذا الوهن شكلَ ورم خبيث، هيأةَ جسدٍ (مُشَوَّهٍ) داخل الجسد الأكبر، قنبلة بداخلي يمكن أن تنفجر في أي لحظة فألقي على إثر انفجارهَا حتفي...

أمَّا الإهانة الأخرى، فكوني الآن ألازم الفراش، أسعى إلى الشفاء، لا يوجد لدائي دواء؛ قد عاقبني جسدي على القطيعة التي أرسيتها معه ناسيا أنني منه كنتُ أستمدُّ الحالة التي غابت عَنّي إلى الأبد، وهي الصحة التي أحاول استعادتها الآن. كأن الإهانة التي ألحقها بي جسدي الآن رسالة تقول لي: «بما أنك لم تعرني أدنى اهتمام، بما أنَّك أهملتني، فلا حَاجَة لي بالبقاء. عمَّا قليل سأرحلُ، وبرحيلي سأسلبك مما أنت إياه، سأحرمك من مُقوِّمَات الحياة». ولقد استعدَّ جسدي فِعلا للرَّحيل، وأخذت بوادرُ هذا الرحيل في الظّهور من خلال الأعراض التي أشكو منها.

لقد فشلت كل مفاوضاتي الأخيرة مع الجسد، إذ لم يُفد أيّ إجراء علاجيّ؛ أنا الآن بين يديه، نحن الآن مجتمعان. هو ينتقم، ولانتقامه شكلان رُبَّما سأرحل دون أن أعرف على أيِّ شكل سيستقرّ، لأنه متى استقرَّ على شكلٍ كنتُ فارقتُ الحياة، وكان الإحساسُ والفكرُ قد غابا عني وغبتُ عنهما إلى الأبَد:

الشكلُ الانتقاميُّ الأوَّلُ أن أموتَ دون أن أخلف لسلالتي أيَّ أثر من مرضي. وإلى هذا النوع من المرضى أتمنى أن يكون انتمائي. فشلي في العلاج (أو الانتقام الأول الذي ألحقه بي الجسد) هو أيضا لقاءٌ بالنفس، بل هو تحقيق للقاء الأسمى بالنفس، ذلك أن كلانَا حَلَّ في الآخر بحيث صرنا وجهين لبعضينا. لقائي الآن بنفسي عَودة إلى حالة الطفولة، إلى مرحلة ما قبل الكلام، هو انفصالٌ لي عن المجتمع، بل رُبَّما هو عودة إلى رحم الأم، ليس الأم البيولوجية، وإنما الأمّ الكبرى التي تجسدها الطبيعة. المرضُ رحيمٌ والموت جميلٌ. موتي مكافأة لي عما رزحت تحته من مرضٍ طوال فترة لزومي الفراش واحتضاري. كأن الطبيعة-الأم حنَّت إليَّ الموت باعتباري طفلها، جزءا مفقودا منها، فأرسلت إليَّ رسولا، هو الموت، كي ينتشلني من المجتمع ومن الحركة. بهذا المعنى يمكن اعتبار فشل المفاوضات العلاجية أو انتقام الجسد مني نجاحا وربحا للطرفين معا: للموت ولي، للطبيعة ولجسدي.

أمَّا الشَّكْلُ الانتقاميُّ الثاني للجسد فهو أن أموت وأخلف لسلالتي أثرا من مرضي لسلالتي. في هذه الحالة لن يكون الموتُ رَؤُوفا، لن يتحقق اللقاء بيني وبينه على انفراد، لن يميتني إلا باعتباري جزءا من جماعة، بديلا عنها. في هذا المستوى، كلُّ شيءٍ يتم كما لو كان هدف الموت هو أن يميت بني البشر قاطبة، أن يمحوهم دفعة واحدة من الوجود. لكن بسببٍ من عجزٍ - ظلت معرفته إلى اليوم عالقة -، فإنَّ اللقاء بين الموت وبين البشر لا يتحقق دفعة واحدة، وإنما يتلاحقُ:

يتحقق في فردٍ من السُّلالة، هو الميت، هو الأب الذي يخلف مولودا يظل في صحة جيدة، لكن في يوم من الأيام يأتي الطبيب ويقول للنجل: «أنتَ مَريضٌ بسرطانٍ وراثي، لقد ازددتَ وبذرة الموت الفجائيِّ مُودَعَة فيكَ»، وفور امحاء الابن من الوجود يتحقق اللقاء من جديد مع الموت...والنموذج الأصلي لموت هؤلاء المرضى هو الصراعُ الأبديّ بين الإنسان والموت. الموتُ لم يُمِت إلا أفرادا دون أن يميت النوع البشري لحدّ اليوم. هذا النوع من المرضى يحملون همَّ البشرية جمعاء بمفردهم، ذلك أنَّ الموتَ تجزيئي، ومهما كبُر عدد الموتى الذين يموتوا لحظة واحدة، وفي مكان واحد، فإنَّ لا أحد منهم يموت كما يموت الآخر، لا أحد يعرف ما إذا كانت تنتابه أحاسيس وأفكار مطابقة لجاره وشريكه في الموت أم لا.

رغم أنَّ الموت يُصيبنا جميعا، رغم أن لا أحد منا يفلت منه، فنحن نتغلب عليه عن طريق التوالد والتكاثر. والتوَالدُ في نهاية المطاف محاولة إفلاتٍ من الموت، مُحَاولة يُجريها البشر رغما عنهم، يقومُ بها ما يمكن تسميته بـ «العقل البشري» أو «العقل الغزيري». وهذا العقلُ هُوَ الذي يُسيرنا، وليس الثقافة أو اللغة أو المجتمع، هو الذي يُدبِّرُ حياة الأفرَاد، وربما هو الذي يوزع علينا الأدوار إذا افترضنا أن موتنا إن هو إلا تقديم أو تأخير لكل واحد منا، يُجريه العقل الغريزي، في لعبته مع الموت.

*

*　　　*

نفقُ الموتِ مُعتمٌ، أنا الآن في منتصفه، يزداد ترنح المرأتين، ترتفع جلبة الغرفة المجاورة، أريد أن أتكلم، لا أقوى على الكلام، أريد أن أنقل كل ما يروج في ذهني من أفكار، لا أقوى على الكلام... أتمزَّقُ ألما وإحساسا بالغبن. ذاتَ يومٍ، كنتُ لا زلتُ في صحة جيدة، وصلني نبأ موت أستاذٍ زميلٍ في كلية الآداب بمكناس، فصُعِقتُ. في الليل اسيقظتُ وسط كابوس، رأيتُ نفسي طريح الفراش، عن يميني امرأة كانت تقول: «كأنَّ شفتيه قطعتا ثلجٍ. الله الله، ابني مسكين يموت! ابني يموت..»، وعن يساري أخرى اكتفت بالترنح والنحيب. يومئذٍ استجمعتُ كلَّ قوايَ، فاستمسكتُ، وقفزتُ صارخا لأجدني في فراش النوم وحيدا. لم يكن ثمة امرأتان ولا أقارب، قمتُ على الفور، فكتبتُ نصا، أروي فيه الكابوس على نحو ما عشتُه، ووضعتُ له عنوان: «لغة الأعضاء: من دفاتر المرض». لكن الآن! أنا الآن أيضا وسط الكابوس نفسه، عن يميني امرأة وعن يساري أخرى، الأولى أمي والأخرى زوجتي. تروج في ذهني أفكارٌ أعمق من كل ما كتبته يومئذ، لكنني لا يمكنني الآن أن أنقل أي شيء مما يروج في ذهني. استمسكتُ مرارا، وحاولتُ مرارا الكلام، لم أستطع الحراك قيد نملة ولا تلفظ ربع كلمة، أعرف حق المعرفة أنني الآن، خلافا للمرة السابقة، على عتبة الموت الفعلي

جراء مرض عضال. أحسّ بالمأساة. تمنيتُ لو أني لم أولَد، لكنني لو لم أولَد لما كان لهذه الأمنية أي معنى، بل لما وُجِدَت بداخلي أصلا. إنني أتمزَّق.

فتنة الآلهة أو الموتُ واقعيا

عندما أَحَسَّ القِدِّيسُ دُنِي Saint Denis بتمرُّدِ صِبْيَةِ المدينةِ المقبلين من أبنَاءِ هَوَس الرَّقْصِ وساندويشات لَوْحَات الإِخبار الإليكترونيةِ أسْرَعَ إلى العجوزِ السُّوربون يتدارس معها كيفية مواجهة النازلة المرتقبة ويقترح عليها خطَّةً لإعادة هيكلة فضاء المدينة وِفْقَ نظام اشتغال عُقُول الأجيالِ المقْبِلَةِ ورغباتها. وكخُطْوة أولى في سبيلِ ذلك، اقترحَ عليها، ضِمْنَ ما اقترحه، المبادرة في أسرعِ وقتٍ ممكنٍ بما يلي:

1 - تحطيمُ مجموعِ الأبْوَابِ المحيطة بالمدينة لأنَّها تُبْدِيها مشدودةً بحنينٍ مُكتَئِبٍ إلى العصور الوسطى في زمن ولَّتْ فيه تلك الحقب إلى غير رجعةٍ، وقامتْ على أنقاضِهَا أولى مواكبُ أزمنةِ الحداثة والتكنولوجيا.

2 - تنحيةُ آلاف الأولياء والوَلِيَّات المعتكِفِينَ بشَوَارِعِ المدينةِ وأزقَّتها ومحطَّات الميترو والمكتبات والحانات)القديس جِرْمَان Saint Germain، القديس بْلاَسِيد St Placide، القديسة آن Sainte Anne،

القديسة لْيُونِي Sainte Léonie واستبدالها بأسماءَ أوثق صلة بالكتب والآلات والحانات.

3 - تحطيمُ كافَّة صوامع المدينة وأبراجِها بما فيها برج إِيفل (La tour Effelle) رمزِ المدينةِ نفسِه: فهي، فضلا عنْ إرْبَاكِها لزوارها بتَرَائِيهَا لهم كقضبان (Phallus)، تُلْحِقُ سكان المدينة بحشودِ الأقوامِ البدائيةِ، فتُبْدِيهِم مُتطلِّعين للنَّفَاذ إلى عالم الآلهة عبر هذه الصَّوامع والقضبان.

4 - كفُّ العجوز عن الإيمانِ بالآلهة وأداء الشّعائرِ الدينية، فتُمَزِّقُ الحجابَ، وتفطر، وتسرق، وتُغني، وتزْني، وتشرب الخمر، وترتَادُ حاناتِ اللَّهْوِ الليلية بانتظامٍ مقدِّمَةً بهاء جسدها هِبةً لمن يشَاءُ.

وبالمقابل، تعهَّد سان دُنِي بتمزيق جُبَّة القداسة وتبليغِ وحْيِ اللذة إلى صِبْيَتِه المقبلين عبر سلسلة محاضراتٍ في الأنْطُولُوجْيا...

إلا أنَّ العجوز لم ترَ في هذه المقترحاتِ سوى محاولةٍ جدِيدةٍ صادرةٍ منْ مراهق مغترٍّ للمكر بها، هي التي حنّكتها تقلباتُ العصور وتوالي الأجيال، ولذلك كان أولُ ردّ فعل لها هو إخراج ما أسمته بـ«المِلَفِّ الأَسْوَدِ» لإيروس كي تُظهر لهذا الأخير أن ذاكرتها ما زالتْ تخترق الأزمنة متمثّلة المهمة التي رسمتْهَا لنفسِهَا منذ البداية. والملفُّ عبارة عن سرْدٍ كرُونُولُوجِيّ لوقائع علاقة جامعة السّوربُون بزقاق سْتْرَاسْبُّورغ دو سَان دني Strasbourg de Saint Denis منذ كانا

بالأولمب، حيثُ إيرُوسُ إلها للجنس وأثينا إلهةٌ للحكمةِ، إلى أن هبَطا مُتُنَكِّرَيْن لبعضيهما في مدينة باريس. وفيما يلي أحد مقاطع هذا الملف:

«لم يكتشف هِيفَايْسْطُوسُ أن زوجته أَفْرُودِيتَ كانتْ مترتبطةً بعلاقة غير شرعية مع آرِيسَ إلا بعد أن ولد الخائنان إيروس. حينئذ تلاطمَتْ على هيفايسطوس أمواج المشاعر القاسية المتضاربة: أيهجرُ أفروديت فيفقِدُ بذلك المرأةَ الأجمل في العالم، التي كان جمالها وراء حرْب طروادة الضَّارية، أم يئد إيروس فيتعرّض بذلك لبطش أبيه الحقيقي آريس إلهِ الحرْبِ؟ أم يحتفظ بالاثنين، الزوجة الخائنة والابن غير الشرعيِّ فيظلُّ إيروسُ وصمَةَ عارٍ تحطُّ يوميّاً من قَدْرِ هيفايسطوس بين الآلهة؟...

وحرصاً من أفروديت على الإبقاءِ على الزّواج، لكونِهِ يمكّنُها منْ إقامة مزيدٍ من العلاقات الهامشية بما يضمنُهُ من إبعادٍ للشُّبْهات، فقد وَجدَت الحلّ المناسب: أرسلتْ إيروسَ هدية لباريس اعترافا له بجميل كان قد أسداه إليها سابقا لما حَكَمَ لصالحها ضِدَّ أَثِينَا وهِيرَا أثناء نزاع الثلاثة حول تفاحة أجمل امرأة في العالم)...(ولما يئِست أثينا من الانتقام من أفروديت مباشرةً نزلتْ إلى مدينة باريس للانتقامِ من إيروس...»

بعد ذلك، أعلنتِ العجوزُ رفضها علناً لمقترحات إيروس واستعملتْ كُلَّ الحيل للإبقاء على وضع المدينة كما هو، وذلك ما تمَّ

بالفعل إذ لازالتْ باريس إلى اليوم فضاءً لتَجَمْهُرِ القدِّيسين والقديسَات من سائرِ الأصناف والدرجاتِ، ولازالت الأبوابُ محيطةً بالمدينة من جميع الجهات، وللتحقُّق من ذلك يكفي امتطاءُ أوتوبيس الحِزَامِ الصَّغِير)الـP.C = La petite ceinture) الذي يَعْبُرُ مرارا، يوميا وبشكلٍ منتظمٍ، جميع هذه الأبواب.

وتحسُّبا لأيِّ اعتداءٍ قد يشنُّه عليها إيرُوُس، فقد عززَّت أثينا موقعَها بالجانبِ الأيمن منْ شارع سان ميشال - باتجاه محطة الميترو سان ميشال - وتحصَّنَتْ من جهاتها الأربَع بأسوارٍ ضخمة وشوارع واسعةٍ، ثم أوكَلَتْ مُهِمَّةَ الحراسةِ الخارجيَّة إلى الكُوليج دُ فرانس جنوبا وكليَّةِ الطب شمالا والبَّانْطِيُون غربا والحي اللاتيني شرقاً. غير أن ذلك لم يمنع إيروسَ من شن هجوماتٍ متواليةٍ عليها محيلاً العلاقة بينهما إلى سلسلةٍ من الحروب كانتْ أشدُّها ضراوةً، حسبَ ما تذكرُه كتُب التاريخ، تلك التي كادتْ أن تُفْنِي إمبراطورية باريس عام 1968؛ فقد شنَّ إيروس على العَجُوزِ غارةً رهيبةً بجرادٍ من البنين والبناتِ انطلقُوا من قاعِدَتَي نَانْطِيرَ وسَان دُنِي، وقواعد أخرى سِرِّية، محمومين برغبةٍ غامضةٍ لاتقاوم، مسلحين بالكتبِ والجرائد والأعْلام السَّوداء وأقراص منع الحمل حتَّى إذا وصلوا إلى السُّوربون داسُوا حُرماتها وعَاثوا في جَنَبَاتِها مدنِّسِين قداسة ممراتها بجماعٍ سافر لا ينقطع كما يروي المؤرخُ المجهول:

«La chose culminera fin mais dans la sorbonne occupée par les étudiants et, nouvelle abbaye de Thélème, ouverte à tous pour y faire toutes les expériences; des couples allongés s'ébattront dans les couloirs, prenant leur jouissance sous les yeux des passants, au - dessus d'eux une banderole révèle leur intention: "Nous ne craignons rien, nous avons la pilule"».

Epistemon, *Ces idées qui ont ébranlé la France, Nanterre,* novembre 1967 - juin 1968, Fayard, Paris, 1968, p. 57.

كانَ الحدثُ مبرِّراً كافيا لتدخُّل أبُّولو، فبادَرَ بتقسيمِ الإمبراطورية إلى مملكتين وزَّع بينهُمَا تَركَتَهَا حسب اختصاص كلّ مملكة، ثم فصَلَهما عن بعضهما بإحداثِ نهر السِّين العظيم، فترتَّب عن ذلك هذا التمايُزُ القائمُ إلى اليوم بين شمال باريس وجنوبها من حيث الفضاءاتِ والوظائف والتأثيتات: وهكذا، فتمركزُ رُمُوز العِلْمِ والمعرفة، كَدُورِ الطَّبْع والمؤسَّسَات والأحياء الجامعيةِ والمكتَبَات والخِزَانات، في جنوب المدينة)لوسوي، غاليمار، بايو، السوربون، جوسيو، الحي الجامعي الدولي، جلبير جون، الفناك، الخزانة الوطنية...(يجدُ تفسيره في انضواء الجنوب تحتَ مملكة أثينا، واحتشادُ رُمُوز الجنس واللَّذَّة كمعاقل البغاء، والمثْلِية الجنسية ومتاجِر الـ «سيكس شوب» (Sexe shopp)، وقاعات الرَّقْص شمال المدينة)سان دني، بِّيكَال Pigall، غابة بولوني Bois de Boulogne،

غابة فانسان Vincenne، قاعة فَاكْرام Salle Vagrame، الأوبِرا، إلخ.(مردُّه أيضا إلى انضواء الشَّمال تحت مملكةِ إيروس. وقد برَّرَ أبُّولو ثنائيةَ هذا التقسيم بنمطِ اشتغال العقْل البَشري الذي اختارَه الإنسان الحالي، والَّذي لا يرى العالم والأشياءَ من حوله إلا بمنظورٍ تجزيئيٍّ تصنيفيٍّ ثنائيٍّ، وأكَّد أن هذا التجزيءَ لايعدو مجرَّد تقسيم مرحلي سيتِمُّ تغييره حالما يخرُجِ الإنسان من المدار البشريِّ الحالي، ويكَسِّرُ جدران عقله ليلجَ آفاقا أخرى في التَّعَامل مع الكون والأشياءِ من حَوَالَيْهِ.

من أعالي الأولمب كان اللُّوغوسُ يتأمَّل أوروبا فتراءتْ له باريسُ بهيأة عقلٍ لم يكتمل تشَكُّلُه بعدُ، فاحتواها احتواءً عنيفا لم ينْجُ منه برٌّ ولابحرٌ. وبذلك تحوَّلَ تقسيمُ أبُّولو سالف الذكر إلى مجرَّد تمظهر خارجي لدهاليز لا متناهيةٍ تؤمِّن تسلُّلاَتٍ سِرِّيَّةٍ متواصلةٍ - داخل المملكتين وخارجهما - أثارتْ ارتباكا شديداً لدى حُرَّاسِ المملكتين في ضبطِ المتسللين والتَّحَقُّق من هُوِيَاتِهِم لأنَّ الأمور اختلطت بشكلٍ لم يُجْدِ معه حتَّى التزامُ سكان كل مملكة بحمْلِ شارَتِهَا، إذ لم يَعُدْ كُلُّ إيروسي الشَّارة بإيروسِيِّ الهوية ولا كُلُّ أثيني العلامةِ بأثينِيِّ الهوية، وتدخَّلت الآلهةُ فتورَّطتْ حتَّى الأذنين، وهُرِّبَتْ أممٌ ونِحل لا تعد ولا تحصى، بخيولها، ونُوقِهَا، وخيامها... وتُفِيدُ المعلوماتُ المتسرِّبة اليومَ أنَّ الإلهين بصدد الإعدَادِ لاقتتَالٍ لن يَشْهَدَ له التاريخُ مثيلاً:

فالقديسُ تحصَّنَ داخل أشد المواقع حَسَاسيةً بمملكته، في قلعةٍ أحاطها شرْقاً بالمعهد الدوليّ للفلسفةِ، وغرباً بجامعة نَانْطِير، وشمالاً بجامعتيِ سَانْ دُنِي وآنْيِير جُونْفِيلِي Annière Gennevillier. وبالمدخل الجنوبيّ نصَبَ باباً ضخماً على هيأة قوسٍ زُيِّنَتْ حجارته الصَّلبة بنقوشٍ لا تضَاهيها إلا نقوشُ كنائس القرون الوسطى. وبنفَقِ الميترو حشَدَ جيوشاً جرَّارة جلبها من الصين والتايلاند والكُورِيَتَيْنِ تُضَمِّخُ الزوار بعطور وأذهان مقدَّسةً ما أن يصل عبيرُها إلى ألْيَاف أدمغتهم حتَّى لا يفطنوا إلاَّ وهُم أسرى حالةٍ روحيَّةٍ ثانية لا يرون معهاَ حيثما ولَّوا وجوهَهُم إلا حِساناً عارياتٍ متناثراتٍ في أزقَّة ضيِّقة في أحوال ومقامات تُذَكِّر كثيرا بمقامات الصُّوفية، ثُمَّ لا يتذكَّرُونَ بعدها شيئاً ممَّا شاهَدُوه أو فعلُوهُ داخلَ الأَسِرَّة المحاطةِ بجُدْرَانٍ منْ مَرَايَا.. وبذلك تتعدَّدُ روايات الزُّوار وتختلفُ إلى حدٍّ تتناقض معه رِوَايَتَا الفَرْدَيْنِ حتَّى وإنْ زارا القلعة في وقت واحد وحَظِيَا بضيافة سيِّدَتَيْنِ ليليتنِ في فراشٍ واحدٍ: ففيما يؤَكِّدُ الأوَّل أنه خرَجَ توّاً من روضةِ الموْتَى، فيأخذُ في حَكْيِ ما رآه وسمعهُ هناكَ، يؤكِّدُ الثَّاني أنه خرَجَ لتوِّه مِنْ رَحِمِ أُمِّهِ... وليسَتِ الرِّوايات الوافدةُ بشأنِ أثينا بأقلّ تناقضاً من هاتين الحكايتين:

فإحْدَى الرِّوَايات تُصَوِّرها امرأة حكيمةً متديِّنَةً اعتكفتْ داخلَ قُبَّةٍ، لا تضَاهيها إلا قُبَّةُ للا عائشة الخضرَاء بالمغرب، تستقبِلُ فيها يوميّاً المريدين من كافَّةِ أرجاءِ المعمور في أجواءَ طقوسيةٍ خاشعةٍ

جليلةٍ منها: أن ينتظِمَ الزَّائِرُ في صَفٍّ طويلٍ يستغرقُ منه سنواتٍ طويلة قبل أن يصل دورُهُ. خلال ذلك ينخرطُ في سلكِ تَوَحُّدِ اللُّغَاتِ حتَّى إذا أقبل عليها وحانَ دورُهُ خطا نحوَهَا بِضْع خطواتٍ وهو مُنْحَنٍ إجلالاً لها إلى أنْ يدنوَ منها، فيُقَبِّلُ صفحةَ يدها وظهرِهَا، ثمَّ يجلسُ بمقربةٍ منها مُدِيراً لها الظَّهْرَ كي تنهالَ عليه ضرباً ورَكْلاً إلى أن يقيءَ أورَاقاً في حَجْمِ وِسَادَةٍ، فتضَعُ فوْرَ ذلك خاتماً على ظهْرِهِ، وتصرفه في فَرْحَةٍ لا يقتلعه من نشْوَتِهَا إلا العَسَسُ عندما يستوقِفُونه سائِلِيَن: «سيدَنا! أَإِمْبَرَاطُورٌ أَنْتُمْ أَمْ وَزِيرٌ أَمْ أَكَادِيمُوسٌ جَامِعٌ مَانِعٌ؟...». وتضيف الرِّواية أنه يحدُثُ أن تسحَبَ أثينا يديها مراراً منَ الزائر وهي تُتَمْتِمُ: «لن تنال الخاتَمَ المبَارَكَ ماَ لم تحفَظِ القُرْآن وتُصَلِّ وتتَكَلَّمْ بإحدى لهجاتِ أدغال إفريقيا أو الأَطَالِسِ عَلَى الأقلِّ...».

وفي روايةٍ أخرى تُقَدَّمُ أثينا خليعةً غارقةً في تقليدِ أَفْرُودِيتَ: فقد ارتبطتْ بحارسِهَا كُولِيج دُو فْرَانْس كما ارتبطتْ أفروديتُ بحارس ضريحِ خليلِهَا أَدُونِيس، وترتَّبَ عن هذه العلاقةِ مَوْلِدُ حرامِيةٍ)مثلما ترتَّب مولدُ إيروس عن علاقةِ أفروديت بآريس وهِيْرمَافْرُوديت عن علاقتها بهُرْمُسَ(صُدِّرَتْ بدورها إلى ولايةٍ، غير بعيدةٍ عن أثينا، مُتَنَكِّرَة وراء هيأة السُّوربون III. ومن موقِعِهَا الجنوبي ارتبطتْ هي الأُخْرَى في سِرِّية تامَّةٍ بأحد أبناء إيرُوس، وهُوَ المعهَدُ الوَطَنِيُّ للُّغات والحضاراتِ الشرقيَّة I.N.A.L.C.O. وهي تَعْبُرُ إليه يومياً عبر دِهْلِيزِ كْرِمْلان بيسَاتْر - فُور أُوبِرْفِيلْيِيه Cremlin Bicêtre - For Aubervillier. ومنْ مملكتِهِ

تقتَلِعُ زَعَامَاتٍ وقياداتٍ من المشْرِقَيْنِ وتسحَرُ البِلادَ والعِبَاد، فتجلبُهُمْ بخيولهم ونُوقِهِم وخيامهم مُهَيَّأَةً الْجَوَّ بذلك لاقتتالِ أثينا وإيروس في جَبْهَاتٍ جديدة قد تَتَنَكَّرُ فيها باريسُ بهيأة دِمشْقَ أو القاهِرةِ أو بانكُوكَ أو بُوغُوطا...»

إلا أن هناك رواية أخرى - هي الصحيحة في ما يبدو - تؤكِّدُ الكثير مما ورد في الرِّوايتين السابقتين، لكنها تفترق عنهما جذريا في التشديد على أن التأمل العميق في ملامح أثينا يفضي حتما إلى تبين وجه تَانَاتُوس إله الموت الذي ليستْ أثينا سوى أحد تَنكُّراته.

المحتـوى

المادة ص

صدر للمؤلف

نصوص سردية:

- **حديث الجثة** (نصوص سردية)، مكناس، منشورات علامات، 1996.
- **كتاب الفقدان، مذكرات شيزوفريني**، الرباط، مطبعة المناهل، 1997.
- **سِفْرُ المأثورات**، الرباط، مطبعة المناهل، 1997.
- **بالعنف تتجدد دماء الحب (رواية)**، مكناس، مطبعة سندي، 1998.

دراسات:

- **ذاكرة الأدب في الشعر والرواية والمسرح** (دراسة)، مكناس، سندي للطباعة والنشر والتوزيع، 1999..
- **الإسلام والسحر**، الرباط، منشورات الزمن العدد 16، 2000.
- **هوامش في السحر** (دراسة)، القاهرة، وكالة الصحافة العربية، 2002.

ترجمات:

- **الفرنكوفونية والتعريب وتدريس اللغات الأجنبية في المغرب** (ترجمة، المؤلف: الدكتور المصطفى الغربي)، مكناس، مطبعة سندي، 1994.
- **أبحاث في السحر** (ترجمة، المؤلف: جماعي)، مكناس، مطبعة سندي، 1995 / إفريقيا الشرق، 2007.
- **لغة العلاج والنسيان، دراسات في ألف ليلة وليلة وقضية «الآيات الشيطانية»** (ترجمة، المؤلف: جلبير غرانغيوم)، مكناس، سندي للطباعة والنشر والتوزيع، 1996.
- **التربية والحداثة** (ترجمة، المؤلف: الدكتور المصطفى شبَّاك)، الدار البيضاء، دار الثقافة، 1998.
- **السحر من منظور إثنولوجي** (المؤلف: جماعي)، مكناس، مطبعة سندي، 1999 / إفريقيا الشرق، 2009.
- **السياسة والأخلاق في السياق العربي الإسلامي** (ترجمة، المؤلف: الدكتور حميد الدليمي)، مكناس، سندي للطباعة والنشر والتوزيع، 1999.

- **اللغة والسلطة والمجتمع في المغرب العربي** (ترجمة، المؤلف: جلبير غرانغيوم)، مكناس، الفارابي للنشر، 1995 / إفريقيا الشرق، 2009.
- **الأدب الرقمي** (ترجمة، المؤلف: جماعي)، الرباط، الدار المغربية العربية للنشر والطباعة والتوزيع، 20016.